# الهجرة، الحراك والمعالم
# الحضرية في الجزائر

جوان 2009

سلسلة أعمال ملتقيات
مخبر الدراسات والأبحاث حول الرحلة والهجرة

# الهجرة، الحراك والمعالم الحضرية في الجزائر

جوان 2009

الأستاذ الدكتور كمال فيلالي
(الإشراف)

لا تلزم المقالات بما فيها من أراء إلا أصحابها

مخبر الدراسات والابحاث حول الرحلة والهجرة
عمارة مخابر العلوم الانسانية
ص ب. 317، جامعة منتوري قسنطينة / الجزائر
الهاتف : 21 34 20 30 213+
الفاكس : 25 81 81 31 213+
البريد الالكتروني : kmlfilali@gmail.com
الويب : http://www.kml-filali.com

ردمك : 978-9947-0-3159-9
رقم الإيداع القانوني : 2011-932

# الفهرس

# الكلمة الإفتتاحية

السيد رئيس المجلس العلمي

السادة الأساتذة

زملائي الكرام

أرحب بكم جميعا في هذا الملتقى الذي سيجمعنا لمدة يومين،حول موضوع جدّ هام يقوم أساسًا على مفهومين أساسيين في علم التاريخ وعلم الاجتماع، ألا وهما الحراك والمعالم الحضرية. وكان اختياري لهذا الموضوع ليس صدفة لكن عن وعي ولأسباب وحجج علمية أجمعها في النقاط التالية :

1 أهمية الموضوع لاحتوائه على الحركة والاستقرار وهما أساسيان لقيام العمران وازدهار الأمصار كما علّمنا ذلك ابن خلدون.

.2 لأنه (موضوع الحراك) يخضع للمناهج الاجتماعية والدراسة الميدانية الأنثروبولوجية فهو موضوع فكري تحليلي يخضع لمعيار التغيير.

3 لأن موضوع الحراك والمعالم ودراسة الوسط الحضري بصفة عامة مغيبة في الدراسات التاريخية خاصة العربية.

4 لأنه يعتمد أكثر على الجهد الشخصي خاصة في التاريخ الذي ركّزت أغلب مصادره على الأعلام من فاعلين اجتماعيين

وسياسيين ودينيين، وأهملت المعالم الحضارية بمختلف أنواعها وكذلك المحيط العمراني.

وقد توقف الاهتمام بالعمران في تاريخ المغرب منذ ابن خلدون ولعل هذا كان أحد أسباب تراجع الحضارة بمختلف أبعادها الثقافية. مهما كان من أمر يبقى الحراك في اتجاه المعالم المؤثرة في الوسط الحضري، والحقل الزماني أساسي في التغيير الاجتماعي وفي تنشيط الديناميكية الحضارية على مختلف الأبعاد والمستويات، فالحركة هي إذا التغيّر بأبعاده المختلفة. وقد حصرنا هذا الملتقى في يومين، يوم ونصف للتاريخ، ونصف يوم لعلم الإجتماع، وعلم النفس. نتناول من خلالهما مواضيع ثرية ومتنوعة، ونحاول فهم إشكالات الحراك والمعالم الحضرية وأهمية الحراك في الوسط الحضري.

ولاستيعاب أصول الحراك وأبعاده التاريخية والاجتماعية خصصنا جلسة للحراك في إطار القبيلة، وجلستان للحراك الحضري.

في النهاية أتمنى أن تكون مجهودات هذه الأعمال ناجحة على غرار الملتقى الأول الذي أثمر ببكورة علمية واعدة.

أشكركم مرة أخرى على تلبيتكم الدعوة على الرغم من مهامكم المتعددة ومتاعب امتحانات نهاية السنة

و اللّه ولي التوفيق

أ. د. كمال فيلالي

# الحراك والرحاب والواقع الحضري
# في قسنطينة القديمة

أ. د. كمال فيلالي
مخبر الابحاث والدراسات حول حركات الهجرة

الحقيقة أن تاريخ الوسط الحضري ومرفولوجية المدينة موضوع صعب من حيث المقاربة ومن حيث المادة. وعليه ارتأينا أن نقدم بعض الايضاحات حول المادة التاريخية المهتمة بالعمران.

## دراسة نقدية للوثائق

المصادر التاريخية لا توفر إطار حركي ديناميكي لمدينة قسنطينة. العدد القليل من المصادر التي خصت قسنطينة بالدراسة تهتم بالأعلام لا بالمعالم بالأشخاص لا بالمحيط الاجتماعي وعلى مستوى أقل جدا بالمحيط العمراني وتوزيعه.

أهم هذه المصادر

أ- لفقون (منشور الهداية).

ب- العنتري - مجاعات قسنطينة.

جـ - مؤنسة فريدة

د- أحمد ابن المبارك الميلي، تاريخ قسنطينة ، في حقبة متأخرة نهاية القرن 19.

المصادر الاستعمارية والاثنولوجية أيضا لم تهتم بتحليل الوسط الحضاري والعمراني ولم يجرؤ أحد من رواد الاستكشاف من فيرو الى فايست دراسة وضع قسنطينة الاجتماعي والعمراني على الرغم من أن مهامهم الاستراتيجية كانت تتوقف على اختراق المجتمع و دراسته من الداخل. و يعود الاهتمام الحقيقي بقسنطينة الى بواي P. Boyer ولكن اهتمامه جاء لمرحلة متأخرة جدا سنة 1902 لطرح أشكال "المستوى المعيشي في قسنطينة". أما أندري ريمون A. Raymond فعلى الرغم من تخصصه في التاريخ الحضري، تاريخ الأوساط الحضرية للولايات العثمانية إلا أنه لم يتطرق لوضع قسنطينة في كتابه الشهير "l'histoire des villes ottomanes".

ويعود إذا هذا الاغفال الى شحّ المعطيات الخاصة بهوية المدينة وتاريخ مرافقها و يبقى تحليل الوسط الحضاري وقراءة العمران قراءة اجتماعية رهن المعلومات الشحيحة والقليلة التي تتوفر من خلال كتب الطبقات والمناقب. تبقى إذا مرفولوجية وتهيئة المدينة رهن بعض المعلومات التي يمكن للباحث استخراجها من سجلات العقود وسجلات الزواج والطلاق. وقد أظهرنا للعيان جزء من هذه التهيئة من خلال دراستنا لملكية الاعيان في عهد صالح باي. كما حاولت ازابال قرنقو حل اشكال بعض

الألغاز الخاصة بمرفولوجية وهوية الاحياء باعتمادها على هذه السجلات التي تعود الى سنة 1202 هجري 1787 م والتي اشتغل عليها في إنجاز رسائلهم مجموعة من الباحثين فيما بعد..

إذا تبقى الدراسة الحقيقية للوضع الحضاري والاجتماعي للمدينة رهن مصادر جديدة ودراسة أنثروبولوجية ميدانية تخضع لمناهج علمية حديثة متعددة التخصصات.

ولعل الوحيد الذي أهتم بشكل المخطط العمراني للمدينة ووضعها الحضري هو مرسيي E. Mercier من خلال مجموعة من المقالات كان أولها قد نشر سنة 1897 وتعتمد هذه الدراسات في مجملها على المخطط العسكري لسنة 1837.

ويصف مرسيي في إحدى مقالاته حول قسنطينة : "بنايات كثيفة تكسو الصخر الذي بنيت عليه المدينة في شكل شبه منحرف، بنايات غامضة و زنق توحي بالانفتاح على بعضها لكنها غالبًا ما تنغلق على نفسها... مباني متراصة و بأشكال متباينة لا يعرف منها الوجه من الظهر... أشباه عمارات عفوية التصاميم". وهذه الخصائص هي خصائص المدينة الإسلامية بشكل عام.

عفوية النشوء و التطور للمدينة يخضع لأسباب تاريخية و لخصائص طبوغرافية و مرفولوجية. لم تكن مدينة قسنطينة على غرار المدن الأخرى عبارة عن مرفأ تجاري بل عن حصن معزول نصب على صخر و لا يمكن النيل منه إلا عن طريق معابر أو جسور متحركة أقدمها الجسر الروماني الذي أعاد ترميمه صالح باي سنة 1787

واستبدله الاستعمار بالجسر الحديدي الذي ينفتح على الباب القنطرة.

و يمكننا تجزئة المدينة القديمة عمرانيا الى أربعة مناطق تنفتح على الخارج من خلال أربعة أبواب تربط المدينة بالعالم الخارجي. و هذه التقسيمات التي اعتمدها كل الباحثين على مرسيي E. Mercier من بوي P. Boyer إلى غرونغو I. Grangaud [1] هي كالآتي :

1 – الطابية

2 – القصبة

3 – باب القنطرة

4 – السويقة (التي تنفتح على باب الجابية)

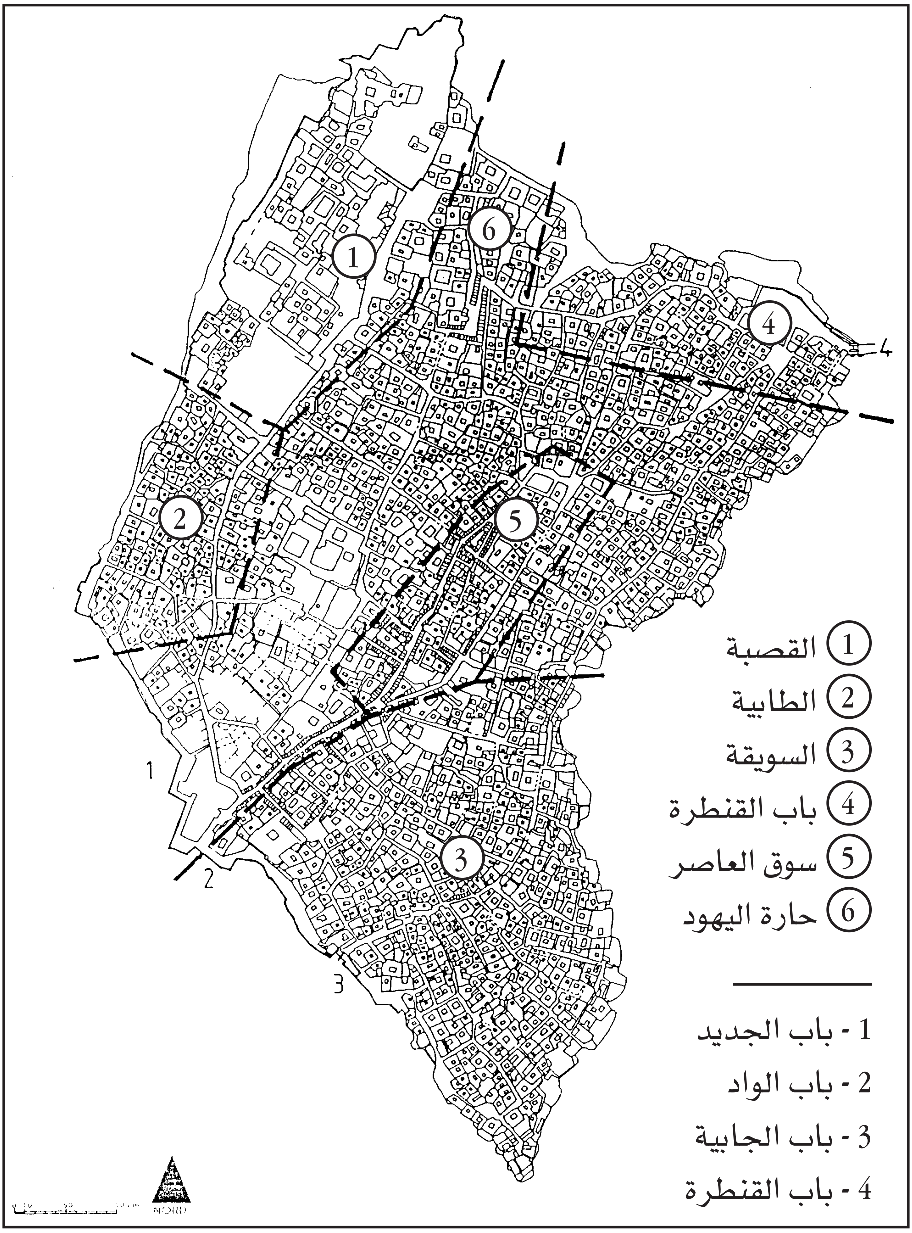
لكن من الجانب الاجتماعي والطبقي يبدو أنها تنقسم الى قسمين يتفقان مع الطبيعة العمرانية. فإذا أردنا أن نرتب الأحياء من حيث أهمية معالمها، نجد أن الجانب العلوي هو الأهم من حيث التاريخ لأنه الأقدم و الأهم من حيث المرافق والمعالم المؤثرة في الوسط و في ديناميكية المدينة. من هذه المعالم نذكر :

– دار الباي و مركز الاوجاق الصغير ودار المالية، المسجد الأخضر، مسجد حسن باي، دار بن لفقون، دار بن جلول، دار صالح باي علما أن هذه البيوتات كانت معالم منتجة للأعلام والأعيان. أهم البيوتات أو الأسر الفاعلة :

دار ابن لفقون – دار بن نعمون – دار بن لمسبَّح – دار ابن لبيض –

1. Isabelle Grangaud, Constantine la ville imprenable

دار بن عيسى – دار عبد المومن – وبيوتات أخرى غير معروفة ورد ذكرها في سجل الطلاق والزواج الذي يعود الى عهد صالح باي.




الحارات والأحياء والأبواب

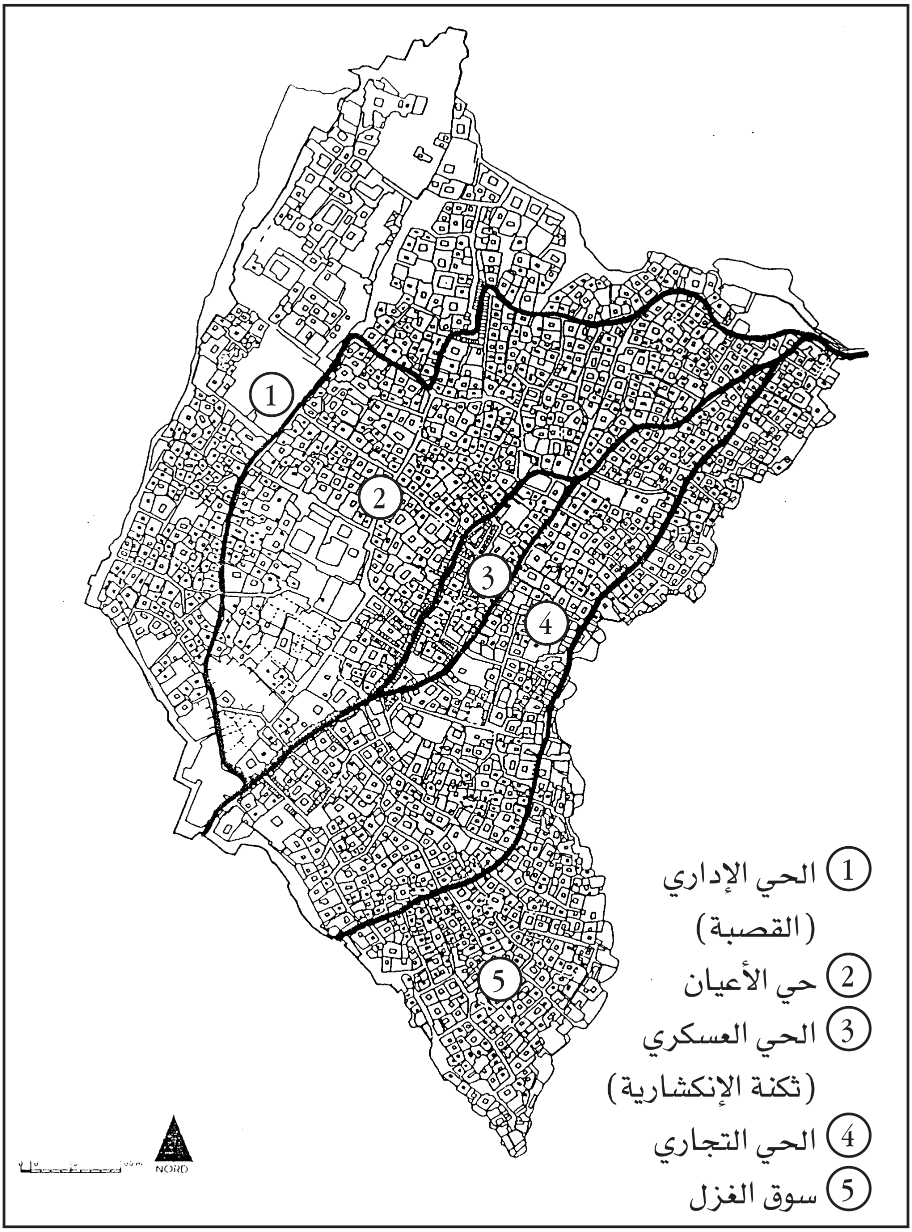
إذا اتبعنا التجزئة التي اعتمدها مرسيي E. Mercier سنة 1797 بناءًا على مخططات سنة 1837، 1840 و 1881 نلاحظ أنها تشمل أطراف الشبه منحرف وتتكون من مجموعة حوم سكنية ورحاب تجارية ويتوسط كل جزء منها معالم أغلبها دينية : أهمها الجامع الكبير بطبيعة الحال. ويتميز الجزء العلوي بالخصوصية العلمية والدينية والادارية باعتباره يؤم الاعلام والمعالم الحضارية فيما يتميز الجانب السفلي بالحارات الصناعية وبالأسواق الشعبية. علمًا أن لكل جزء سوقه اليومي أو الأسبوعي.

## أهم المعالم التي كانت تحدث الحراك بالمفهوم السيولوجي

اذا اعتبرنا أن الحراك هو التنقل في اطار شبكة اجتماعية لتأدية مهام أو خدمات، فإننا نلاحظ وجود الحراك في اطار محدود جدا يتمثل أساسا حول، المساجد والزوايا وبعض الأسواق. فالوسط الحضري كان مكتظ ومرتبط بالشكل الفزيولوجي المتفتح على الداخل والمتراص الذي أثر بدوره في السيكولوجية الجماعية وفي الوضع الاجتماعي.

وخلصنا من خلال دراستنا التاريخية للوسط العمراني والاجتماعي للمدينة أن الاتصال العضوي المباشر La conectivité physique وضيق الموقع الصخري للمدينة أثرا على الحراك بمفهومه الحديث.

إلا أن انتشار الزوايا كمعالم روحية مقدسة تحفِّز على الاطمئنان والسعي في نطاق البركة فهو علم Repère يعلِّم كل الأوساط الحضرية والاجتماعية. فلكل حومة زاويتها وقدسيتها ولكل رحبة ولكل حارة




المسالك الكبرى وتجزئة المدينة إلى أحياء

أو طائفة صناعية زاويتها. فكانت هنالك زوايا للدباغين وزوايا للصباغين وزوايا أخرى تحمل أسماء أتباعها من الاعلام وأصحاب الأوراد.[1]

إن ميزة تداخل العمران تكشف عن أهمية شبكة الاتصال المؤسسة على طراز المرفولوجية العنكبوتية للعمران. فالفضاءات متكاملة ومتجانسة عضويا لدرجة ان المدينة ليست في حاجة الى حراك وأن عامل التقارب قوي والوسط معلم بمعالم معلمة للوسط الاجتماعي لمختلف تشكيلاته..

ولم يكن المجتمع القسنطيني في تلك الفترة في حاجة الى حراك بقدر ما كان يحتاج الى اتصال عضوي و يمكننا دعم هذه الفكرة بعدم وجود شوارع ومسالك سيارة تسمح بالسيولة في نطاق الديناميكية العامة للمدينة. الشيء الذي جعل النسيج العمراني يشبه خلايا النحل والبنايات تتطور بشكل عفوي يناسب مرفولوجية الموقع والهجس الأمني وهي الخصوصية التي بنيت عليها المدينة.

وما تأكيد مرسيه Mercier على الزنق الواعدة بالانفتاح والمنغلقة على نفسها، كذلك عنوان كتاب Isabelle Grangaud إيزابيل غرونغو "la ville imprenable" إلا دلالة على انفتاح المدينة على نفسها من خلال انغلاقها على الخارج. وهذه الظاهرة يقول عنها جاك برك Jaques Berque أنها ظاهرة عربية تعود إلى ما قبل الإسلام.[2]

1. Voir Charles Feraud in RA. 1872.
2. Jaques Berque, Histoire des cultures, tome 1, Paris, puf - 1997, p. 1205.

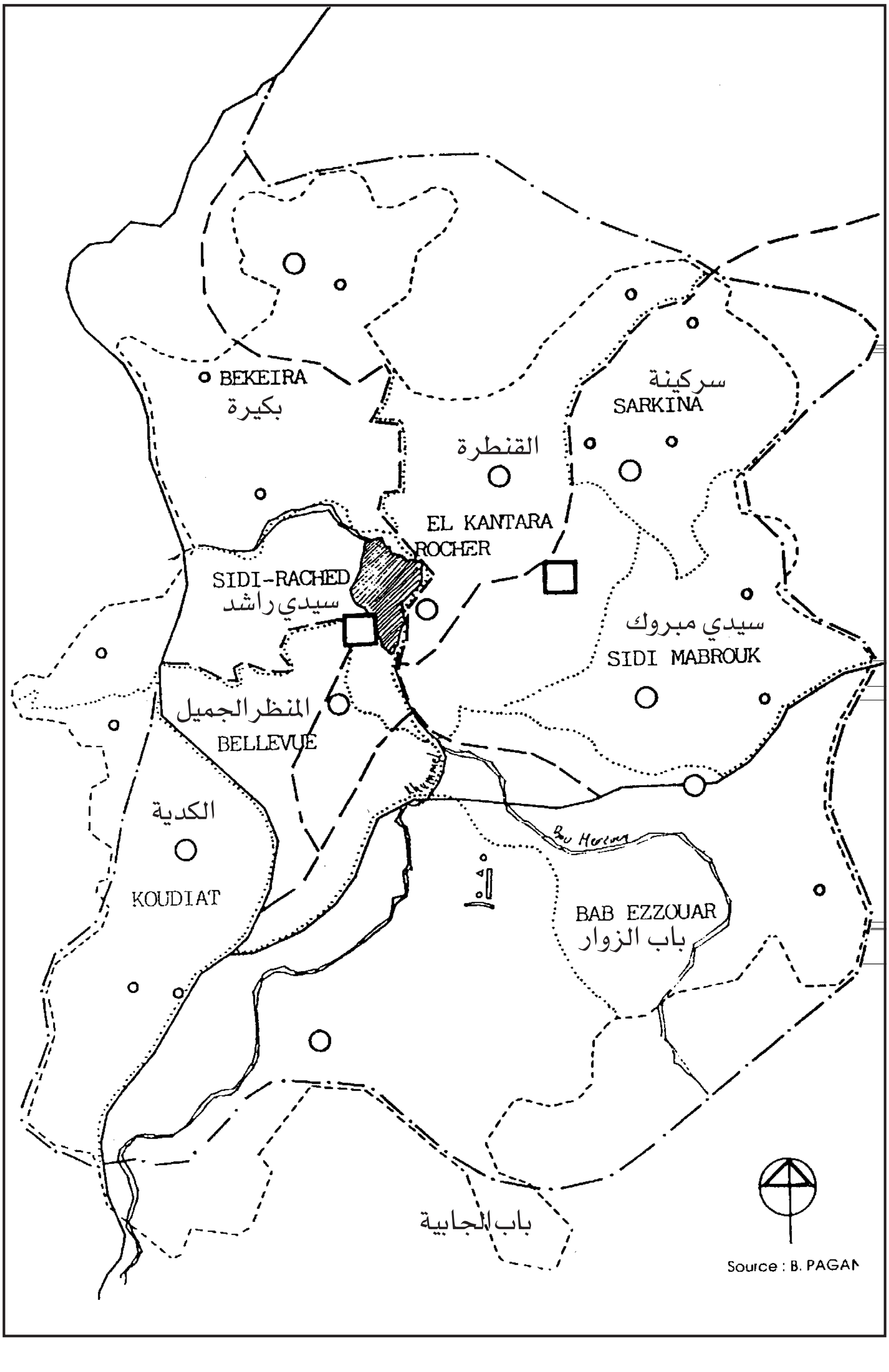
## ملاحظات

الفضاء الاقتصادي والصناعي

ثلثا أجزاء (3/2) من الفضاء العمراني مخصص للنشاطات الحرفية والأسواق المتخصصة. الحرفيين أو ما يمكن تسميته بالحي الصناعي، الذي كان يوجد بين مقر الأوجاق والذي بني عليه المسرح الوطني في العهد الإستعماري.

والصناعات النبيلة الصوف والغزل تتواجدان في الحي النبيل..

ومما تبين نخلص للقول أن الحراك كان رهن الاتصال العضوي لهذه الحارات التي لا تنفتح على نفسها وتنغلق على الخارج.


BEKEIRA
بكيرة
SARKINA
سركينة
القنطرة
EL KANTARA
ROCHER
SIDI-RACHED
سيدي راشد
سيدي مبروك
SIDI MABROUK
المنظر الجميل
BELLEVUE
الكدية
KOUDIAT
BAB EZZOUAR
باب الزوار
باب الجابية
Source : B. PAGAN

# قراءة في قصة مهاجر جزائري
# إلى أوروبا في العهد العثماني

د. خليفة حماش
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

**1. التعريف بالقصة :**

إن حادثة الهجرة التي تشكل موضوعنا هنا هي واحدة من الأحداث المميزة في تاريخ الجزائر العثماني، وذلك لاعتبارين أساسيين : أولهما أنها تتعلق بموضوع غير عادي وهو الهجرة إلى أوروبا التي كانت تتحكم فيها آنذاك ظروف خاصة تتمشى والطابع العام للعلاقات التي كانت قائمة بين العالم الإسلامي وأوربا آنذاك كما سنبينه في عنصر موال، وثانيهما أننا نملك حولها معلومات معتبرة تُصور لنا تلك الحادثة بخطوطها العريضة من بدايتها إلى نهايتها، ولذلك تليق بأن يطلق عليها اسم "قصة". وتتعلق في ملخصها برجل جزائري ينحدر من أسرة تركية اسمه "حِكمت" هاجر إلى إسبانيا وتزوج بامرأة هولندية وعاد إلى الجزائر. ونقل لنا تلك القصة الدبلوماسي الفرنسي

"شوفاليي دارفيو Chevalier d'Arvieux"[1] في مذكراته التي نشرت بباريس في ست مجلدات عام 1735 م، وذلك بعد وفاته بثلاث وثلاثين سنة. وجعل لتلك القصة عنوانا بارزا في نهاية تلك المذكرات هو: "قصة جزائري تزوج امرأة فلامانية Histoire d'un Algérien, qui avait épousé une Flamande". وغطت أخبار تلك القصة الصفحات الأربع عشرة الأخيرة من المجلد السادس من تلك المذكرات (469 - 482)، وقال صاحب المذكرات بأنه سمعها في الأيام الأخيرة من عام 1683 م، وهي السنة التي ختم بها مذكراته. وكان مصدره في ذلك الزوجة الفلامانية المذكورة نفسها (ص 473). ولكن تلك السنة تمثل في الواقع نهاية القصة التي كانت في مدينة صيدا بلبنان، أما بدايتها التي كانت في الجزائر فإن صاحب المذكرات لم يحددها لنا. وكل ما ذكره حول ذلك أن "حكمت" (الشخصية المحورية في القصة) كان في عام 1675 م وقبل زواجه بالهولندية المذكورة، موجودا في مدينة "أنفرس Anvers" ببلجيكا. وكما يستخلص من الأحداث التي مر بها "حكمت" في إسبانيا حيث كانت هجرته، أن مغادرته لمدينة الجزائر كانت قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات، ودامت هجرته بعد ذلك بضع

1. هو "لوران دارفيو Laurent d'Arvieux"، ولد بمرسيليا عام 1635 م، وتوفي في عام 1702 م. كان والده يعمل قنصلا في بلاد الشرق، ورافقه إلى هناك حيث تعلم اللغات الشرقية من عربية وتركية، وانكب على دراسة تاريخ الشعوب الآسيوية عموما. وعندما عاد إلى فرنسا انخرط في السلك الدبلوماسي، وأرسل مبعوثا من الملك الفرنسي إلى الباب العالي، ثم إلى تونس، وعين قنصلا في حلب، وبعدها في الجزائر وطرابلس ومدن أخرى في الشرق. واهتم في خلال تلك المدة التي قضاها في الترحال بين مدن الشرق بتسجيل مشاهداته وأخبار الأحداث التي عاشها وسمع عنها بمختلف أنواعها، وهي المذكرات التي نشرت بعد وفاته في باريس عام 1735 م، وضمت ست مجلدات: – Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Paris, chez Charles –Jean Baptiste Delespine, 1735, 6 vols.

سنوات أخرى امتدت حتى عام 1681 م على أبعد تقدير، حيث كانت عودته إلى الجزائر.

## 2. فصول القصة :

**.البداية : من الأسر إلى الهجرة :** لكي نحدد بداية تلك القصة فإنه من الضروري تتبعها من جذورها الأولى التي ترتبط بحياة الشخصية المحورية فيها، وهي شخصية "حكمت" الذي بدأ في الظهور على مسرح الأحداث لما سافر وهو صغير رفقة والده في رحلة بحرية للبحث عن الغنائم قبالة السواحل الأسبانية، وهناك وقع أسيرا هو ووالده في يد البحرية الأسبانية، فبيع هو لأحد الوجهاء الإسبان، أما والده فلم يُعرف عنه شيء. وبعد بضع سنوات بعد ذلك أُطلق سراح "حكمت" وعاد إلى وطنه (مدينة الجزائر). وبعد مدة من ذلك جهَّز سفينة حربية وقادها نحو السَّواحل الأسبانية للهدف نفسه الذي كان سببًا فِي أسره في المرة الأولى. وكان حظه هذه المرة أيضا غير موفق، إذ وقع أسيرا كذلك في يد البحَّارة الأسبان، ولم يُطلق سراحُه إلا بعد أن دُفع في حقه فِدية كبيرة. ولمَّا عاد إلى مدينة الجزائر قرر أن يُغيِّر مجرى حياته بشَكل تام، وذلك بالهجرة إلى أسبانيا والعمل بها دون أن يُغيِّر دينه. ولكيّلا يكتشف أمره فإنه استغلَّ معرفتَه باللغة القشتالية التي تعلَّمها في الأسر، وتخفى في الزيِّ الأسباني، واتخذ لنفسه اسما أسبانيا اختاره ضمن أسماء العائلات الأسبانية الشهيرة التي كان يعرفها وهو "دوم جوزيف دو هرارا فلاسكو Dom Joseph de Herrara Velasco".

**.الذروة : اختراق مؤسسة الجيش الإسباني والزواج من هولندية :**

تبدأ ذروة قصة "حكمت" بوصوله إلى أسبانيا حيث قام في البداية بجولة عبر أراضيها بحثا عن فرصة العمل المناسبة، ووجد ذلك في النهاية في مؤسسة الجيش التي أفلح في الالتحاق بها، حيث برزت شخصيتُه من خلال سُلوكِه الحسن وقدراته العسكرية وشخصيته القوية حتى نال ثقة رؤسائه ورقي إلى صف الضباط، واختير مرتين للذهاب إلى الهند على متن الأسطول الملكي، ونال خلال ذلك شهرة واسعة باعتباره ضابطًا حكيمًا وشجاعًا ومحنَّكا. وسمحت له رحلتاه إلى الهند بالحصول على مال وفير. وبعد ذلك عين ضابطا برتبة نقيب (capitaine) في سلاح الفرسان، ثم ضابطا برتبة Sergent Major في سلاح المدفعية بقلعة "أنفرس Anvers" في بلجيكا حيث كان يوجد في عام 1675 م. وفي هذه المدينة زادت شهرته أكْثر فأكْثر، وصار محل أنظار كثير من الناس داخل وحدات الجيش وخارجها، وذلك بسبب كونه ضابطا في الجيش الملكي من جهة، والنسب العريق الذي كان يحمله من جهة ثانية، وقوة شخصيته واستقامة سلوكه من جهة ثالثة. وكان من الطبيعي وسط تلك الشهرة أن يتخطى اسمه الوسط الرجالي ليصل إلى الوسط النسائي حيث صارت كل امرأة في المدينة تتمنى أن تكسبه بحبها ويكون لها. وكان من الطبيعي أيضا أن يقع اختياره هو على إحداهن ليتزوجها، وكانت صاحبة الحظ في ذلك الشابة الهولندية "هلان دان Helene Danes" التي كانت ابنة لأحد أمناء الخزينة الملكية في مدينة "أنفرس"، وشهد بمعرفته وإثبات شخصيته في عقد زواجه عليها شخصان أسبانيان أحضرهما من مدينة بروكسل

(عاصمة بلجيكا حاليا). وبعد بضعة أشهر من زواجه اقترح على زوجته القيام برحلة إلى هولندا لقضاء بعض شؤونه الخاصة، ومن هناك توجه بها إلى أنكلترا للغرض نفسه أيضا. وهناك أخبر زوجته بأنه لا ينوي العودة إلى مدينة "أنفرس" لأنه لم يجد راحة الحياة فيها لأنها ليست موطنه، واقترح عليها أن يتوجها إلى أسبانيا للعيش في عاصمتها حيث يوفر لها كل أسباب الراحة والعيش الكريم أكثر مما هو متوفر لها في موطنها، وسيستغل في ذلك ثروته المالية من جهة، ومكانته في الجيش الإسباني من جهة ثانية. وهنا أخذت قصةُ الهجرة التي مثَّلَها "حكمت" المنعطف الذي يقودها إلى نهايتها.

**.النهاية : العودة إلى الجزائر والموت في لبنان** : بدأت قصة "حكمت" تميل إلى النهاية عندما استقل هو وزوجته الهولندية في أنكلترا سفينة أنكليزية كانت ستقلهما إلى مدينة "كادي Cadix" على الساحل الإسباني الجنوبي المطل على المحيط الأطلسي. ولما اقتربت السفينة من المياه الإقليمية للمدينة إذا بخمس سفن حربية ظهرت أمامها تبيَّن بأنها جزائرية. فاقتربت السُّفُن الخمس من السفينة الأنكليزية للتعرف عليها وفحص وثائقها. ولما كان الأنكليز والجزائريون تربطهما معاهدة سلام فإن الطرفين تبادلا زيارة بعضهما بعضا على متن الزوارق. وفي أثناء ذلك صعد حكمت زورقا جزائريا وتوجه إلى قائد السفن الجزائرية وأطلعه على شخصيته الحقيقية، وأخبره بأنه ينوي العودة إلى الجزائر. فأرسل معه عددا من الجنود المسلحين الذين صعدوا السفينة الأنكليزية، وعند ذلك تقدم حكمت نحو زوجته وأخبرها بأنه ليس أسبانيا وإنما هو تركي مسلم من الجزائر،

ولذلك فإنه يريد التوجه إلى الجزائر وليس إلى أسبانيا، وأمرها بأن تصعد الزورق لتركب على متن سفينة القيادة الجزائرية. ولما سمعت الزوجة ذلك الكلام منه تفاجأت وصاحت ورفضت ركوب الزورق وطلبت النجدة من ربان السفينة الأنكليزية ومساعديه الذين أسرعوا لحمايتها. ولكن الجنود الجزائريين صعدوا السفينة الأنكليزية وسيطروا عليها، وعند ذلك خير حكمت الربان الأنكليزي بين أن يترك زوجته تذهب معه ولا يتدخل في شأنها، أو أن يُقبض عليه هو نفسه وتقاد سفينته إلى مدينة الجزائر. فما كان من الرُّبان الذي أدرك أنه لا يستطيع المقاومة إلا أن تراجع عن موقفه وترك الزوجة وشأنها. فنقل "حكمت" زوجته وولده وأمتعته صوب السفن الجزائرية التي أخذت بعد ذلك وجهتها نحو مدينة الجزائر. ولما نزل حكمت في المدينة فإنه ووجه بعدم رضا أقاربه والوجهاء عليه بسبب زواجه بامرأة مسيحية. ولذلك فإن محاولات كثيرة بُذلت مع الزوجة من جانب النساء لإقناعها باعتناق الإسلام. ولكنهن لم يفلحن في ذلك. وفي تلك الأثناء أجرى "حكمت" لولده عملية الختان. وبعد عام من ذلك رُزق بولد آخر. ولكن "حكمت" ما فتيء أن ركب السفينة مرة أخرى وقرر أن يغادر الجزائر ولكن ليس نحو أوروبا وإنما نحو إستانبول ليعيش بها مع أسرته بصفة نهائية. وكانت المحطة الأولى في رحلته هذه مدينة الأسكندرية بمصر، ومنها إلى فلسطين حيث زاروا القدس وبيت لحم والناصرة. وهناك أصيب بمرض خطير جدا une maladie très dangereuse، وبذلت زوجته مجهودا كبيرا في معالجته. ويبدو أن ذلك المرض قد أنهكه كثيرا، وبقيت آثاره بادية عليه حتى لما وصل إلى

مدينة صيدا بلبنان حيث قرر أحد المسيحيين المارونيين قتله، بحجة أنه كافر تزوج بامرأة مسيحية، مما عُد تعديا على الديانة المسيحية وإهانة لشعائرها ومساسا بمشاعر المسيحيين وكرامتهم. وكان ذلك الشخص صاحب سفينة، ولكي يدبر له المكيدة توجه إليه وعرض عليه نقله إلى مدينة طرابلس ليواصل رحلته من هناك إلى إستانبول. فقبل "حكمت" عرَضه وركب السفينة هو وزوجته وولداه وخدمه. ولكي يؤمن نفسه فإنه جرد قائد السفينة وأتباعه من أسلحتهم واحتفظ بها لديه. ولكن مكر الربان وإصراره على قتله كانا أكبر مما خطر على بال "حكمت" العسكري المحنك. ولكي لا يثير أي شك حوله فإنه ترك حكمت ينام الليلة الأولى في هدوء تام، ولكن في الليلة الثانية بينما كان حكمت غارقا في نومه إذا به يقترب من أحد الشطآن حيث كان ينتظره عدد من الرجال المسلحين أرسلهم إليه حاكم المنطقة، وكان مسيحيا أيضا، واسمه الشيخ قاسم Khasem. فركب هؤلاء الرجال السفينة دون أن يشعر بهم "حكمت" الذي كان غائصا في نوم عميق بسبب متاعب رحلته الطويلة من جهة، وآثار المرض الذي أصابه في فلسطين من جهة ثانية. وعلى التوِّ من ذلك تقدم نحوه قائد المجموعة وضربه بقوة على رأسه بصخرة كبيرة كان يحملها بين يديّه، ورغم ذلك فإن "حكمت" نهض وحاول استلال سيفه للدفاع عن نفسه، ولكن بقية المسلحين هاجموه بخناجرهم وضربوه مرات عديدة في جسده حتى أردوه قتيلا. أما الزوجة وولداها فقد اقتيدوا إلى منزل الشيخ قاسم الذي كان شريكا في المؤامرة، ومنه اقتيدوا إلى أحد الأديرة ويعرف بدير مرهنَّة. وهناك دبرت لها بالاشتراك مع رئيس جمعية

اليسوعيين في مدينة "أنتورة Antoura"، خطة سرية لترحيلها إلى بلدها مع ولديها دون شعور بذلك من السلطة العثمانية المحلية التي كانت قد اكتشفت القضية وتلقت أمرا من الباب العالي بالتحقيق فيها وانتزاع الولدين من والدتهما ليُربيا على الدين الإسلامي. وتمت تلك الخطة بإركاب الزوجة مع ولديها على متن سفينة إيطالية لتُقلها إلى مدينة البندقية، ومن هناك تواصل رحلتها إلى بلدها في مدينة "أنفرس Anvers" في بلجيكا.

## 3. إشكاليات القصة :

تطرح قصة "حكمت" إشكالات كثيرة، والإجابة عنها تعد طريقا أساسيا لفهم مجريات الأحداث بها. وإذا كانت بعض الإشكالات يمكن استخلاص الإجابة عنها بشكل جزئي أو كلي من خلال النص الذي يوجد بين أيدينا حولها كما أورده شوفاليي دارفيو في مذكراته، وكما هو مبين في العنصر السابق من هذا العمل، فإن إشكالات أخرى غيرها يصعب الإجابة عنها، خصوصا أن النص إما لا يتطرق إليها بشكل كامل، أو يتطرق إليها بشكل جزئي لا يستجيب لمتطلبات الفهم التام للأحداث. ومن ثمة فإن الإجابة عن تلك الإشكالات يتطلب الاطلاع على مصادر بحث أخرى تكون قد تضمنت وثائق سُجلت بها أحداث قصة "حكمت"، وهي مصادر غير متوفرة بين أيدينا اليوم، وقد تكون عثمانية كما قد تكون أوروبية. وأول تلك الإشكالات هل كان ذهاب "حكمت" إلى إسبانيا هجرة دافعُها الملل الذي أصابه في الجزائر والبحث عن وسيلة أخرى يجمع بها الثروة من غير القرصنة

التي فشل في ممارستها وأُسر مرتين بسببها كما ذكر "شوفاليي دارفيو" في مذكراته، أم كان هناك دافع آخر غيره سري لم يتحدث عنه "حكمت" لزوجته وبالتالي لم يتطرق إليه "شوفاليي دارفيو" ضمن القصة التي سجلها في مذكراته؟ ثم ما هي الدرجة التي كانت عليها خطورة الهجرة إلى أسبانيا آنذاك حتى تتطلب التنكر في الزي كما فعل "حكمت" ؟ ولما كان "حكمت" قد هاجر إلى أوروبا دون أن يغيِّر دينه، فكيف كان يمارس شعائره الدينية، من صلاة وصوم ؟ وبعد ذلك هل كانت عودة "حكمت" إلى الجزائر عودة مخططا لها أم كانت صدفة ؟ وإذا كان مخططا لها فأين بدأ ذلك التخطيط، أكان في مدينة "أنفرس" أم بعدما غادرها إلى هولندا ثم إلى أنكلترا ؟ وهل كان وجود السفن الجزائرية في المياه الأسبانية جزءا من تلك الخطة أم كان صدفة ؟ وإذا كان قرار العودة قد اتخذه "حكمت" في مدينة "أنفرس" فلماذا جاء ذلك القرار بعد بضعة أشهر فقط من زواجه ؟ ولماذا لم ينتظر مدة أطول من ذلك ؟ وبالنسبة إلى هولندا وأنكلترا اللتين شكلتا محطتين أساسيتين في مسار تلك العودة فهل كان مرور "حكمت" بهما للتمويه على عودته فقط، أم كان لتسوية شؤون خاصة به، أم كلاهما معا ؟ وبخصوص ابنه الأول، أين كانت ولادته، هل كانت في هولندا أم في أنكلترا ؟ وإذا كان حكمت قد جمع مالا معتبرا (ثروة) من هجرته تلك، وخصوصا من رحلتيه على متن الأسطول الملكي إلى الهند كما ذكر "شوفاليي دارفيو، فكيف نقل تلك الأموال إلى الجزائر، أكان ذلك برفقته ضمن أمتعته على متن السفن التي ركبها، أم بوسيلة أخرى غيرها كانت تقوم بها المؤسسات المالية آنذاك وهي

التحويل ؟ ولما وصل إلى الجزائر فلماذا قرر التوجه إلى إستانبول، وتم ذلك بعد سنة واحدة فقط من وصوله ؟ فهل كان ذلك بسبب كرهه الحياة في الجزائر، أم كان بسبب آخر قد يكون مرتبطا بهجرته إلى أسبانيا ؟ ولما اغتيل في لبنان على يد المسيحيين المارونيين، فهل كان ذلك الاغتيال سببه التعصب الديني كما ذكر "شوفاليي دارفيو"، أم الطمع في الاستيلاء على أمواله، أم هناك سبب آخر غيرهما له علاقة بقصة هجرته إلى أسبانيا أيضا ؟ وبعد ذلك كله فهل يوجد اليوم في دور الوثائق العثمانية والأوروبية (فرنسية وأسبانية وأنكليزية) من الوثائق ما قد ينير لنا بصورة أوسع هذه القصة التاريخية المعتبرة ؟ وأخيرا فإذا تأملنا من الناحية الدينية في المصير المؤلم الذي انتهت عنده قصة "حكمت"، فهل كان ذلك عقابا له من اللّه (عز شأنه) في الدنيا على منكر اقترفه في هجرته، أم كان لحكمة أخرى أراد اللّه أن يُبينها لنا وعلينا أن نجتهد لاكتشافها لنعتبر بها ؟ وهذه الأسئلة وغيرها هي التي تطرحها علينا قصة "حكمت"، ولكن الإجابة عنها جميعا هي في درجة عالية من الصعوبة، لأنها في حاجة إلى مزيد من البحث للوصول إلى مصادر أخرى تناولت أحداثها، وهو ما ليس متوفرا لدينا اليوم. ومن ثمة فإن عملنا هنا سيقتصر على الإجابة عن قدر محدود من تلك الأسئلة، ويكون ذلك إما بطريقة مباشرة من خلال الأحداث التي بُنيت عليها القصة ذاتها، أم غير مباشرة من خلال السياق العام لتلك الأحداث. ويكون ذلك ضمن العناصر الآتية :

## 4. الإطار التاريخي للقصة :

يعتبر السفر بشتى أهدافه وأنواعه بين بلاد الإسلام (ومنها الجزائر) وأوروبا في عصرنا الحديث عملا طبيعيا وعاديا، وذلك بحكم التقارب الجغرافي بين الطرفين من جهة، ومن جهة ثانية بحكم عوامل الارتباط والتبعية اللذين تولدا بين الجانبين بسبب ظاهرة الاستعمار. وذلك ما يفسر وجود جاليات مسلمة كبيرة تقدر بالملايين مقيمة اليوم بشكل دائم أو مؤقت في الدول الأوروبية. ولكن تلك الهجرة إذا كانت تعتبر في عصرنا الحديث طبيعية وعادية، فإنها لم تكن كذلك في العصور السابقة على امتداد التاريخ الإسلامي، بداية من ظهور الإسلام إلى نهاية العهد العصر العثماني. فكانت تلك الهجرة مُقيدة بشكل أساس بأحكام السفر إلى بلاد الكفر التي سنها فقهاء المسلمين بسبب الحرج الديني الذي يسببه ذلك السفر للمسلم في حياته، من منع لممارسة شعائره وتشويش على عقيدته وخضوع لأحكام إدارية خارجة عن دينه. ولذلك وُجد أن كثيرا من الفقهاء قد حرموا ذلك السفر وربطوا جوازه بشروط محددة. فهذا أبو الوليد محمد ابن رشد المالكي (تـ 520 هـ) يقول : "لا يجوز لأحد من المسلمين دخول دار الشرك لتجارة ولا لغيرها إلا لمفاداة مسلم، فإن دخله (أي دخل دار الشرك) لغير ذلك طائعا غير مكره [...] تسقط إمامته وشهادته"[1]. وهذا أبو عبد الله محمد المازري (تـ 536 هـ /1141 م) لما سُئل عن السفر إلى صقلية، فأجاب بأنه "إن كانت أحكام الكفر جارية على من يدخلها

1. نقلا عن: ابن عامر (عماد)، الهجرة إلى بلاد غير المسلمين، الجزائر، دار التراث، 1425 هـ / 2004 م، ص 114.

من المسلمين فالسفر إليها لا يجوز"، وأضاف قوله بأن ذلك حتى وإن كان "لأجل ضرورة الناس إلى الأقوات". واستدل على ذلك بـ "حرمة المسجد الحرام التي يجب أن تُصان عن ابتذال الكُفَّار ونجاستهم، وأن هذه الحرمة لا يرخص في تركها للحاجة إليهم في حمل الطعام وجلبه إلى مكة، وكذلك حرمة المسلم لا تُنتهك بالحاجة إلى الطعام، فإن اللّه سبحانه يغنيه من فضله إن شاء". وقد أيد شيخه الإمام الصائغ تلك الفتوى، وأضاف عليها قوله : "إنَّا إذا سافرنا إليهم صار لهم من قِبَلنا أموال عظيمة يتقوّون بها على محاربة المسلمين"[1]. وقد استمر هذا الموقف الفقهي في التشديد على المسلمين في السفر إلى بلاد الكفر حتى العصر الحديث كما يستخلص من قول محمد بيرم الخامس التونسي (تـ 1307 هـ/ 1889 م) من أن جدَّه سُئل "عن ركوب البحر والذهاب لدار الحرب، هل يُسقطان العدالة أم لا، فأجاب بما نصه: أما الذهاب إلى دار الكفر فينظر فيه للسبب الحاصل عليه، فإن كان مصلحة ما عامة للمسلمين أو خاصة بالذاهب كما إذا كان به مرض عجز عن علاجه هنا فهذا لا بأس به ولا تسقط العدالة بسببه، وإذا كان الغرض التجارة والاستكثار من حطام الدنيا فهذا هو الذي تسقط به العدالة". وقد شرح محمد بيرم مفهوم "العدالة" في تلك الفتوى فقال بأن المقصود بها "حفظ المروءة، والتنزه عن الرذائل وسفاسف الأمور، وحفظ الدين، وكف الظلم والمعاصي، لأن المسلم إذا كان ـ حسب بعض الأقوال ـ لا يستطيع أن يقوم بذلك في أي بلد، وجب الهجرة منه حتى وإن كان بلده الذي وُلد فيه"[2].

1. المازري (أبوعبد اللّه محمد)، فتاوى المازري، تحقيق الطاهر المعموري، تونس، الدار التونسية للنشر، 1994 م، ص 364 ـ 365.
2. بيرم الخامس (محمد)، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط 1، القاهرة، المطبعة

ولكن في الوقت الذي وُجد من الفقهاء من حرموا السفر إلى بلاد الكفر تحريما تاما أو شددوا فيه تشديدا كبيرا، فقد وجد إلى جانبهم فقهاء آخرون جوزوا ذلك السفر إذا توفرت فيه جملة من الشروط وهي أن يضمن المسافر أمنه في دينه ونفسه وماله وعرضه [1]. وهذه الشروط هي التي كانت متوفرة في أنحاء مختلفة من آسيا مثل الهند والصين ومنغوليا، وكذلك أنحاء أخرى من إفريقيا، بحكم أن شعوب هذه البلدان لم تكن تشكل خطرا عليهم كما لم تكن في حرب معهم ولم تكن تناوئهم، ولذلك كان سفر المسلمين إليها كثيرا، من تجار ورحالة. أما البلدان التي كانت على العكس من ذلك لا تتوفر فيها تلك الشروط فإن التشدد في السفر إليها كان قويا من الفقهاء، وهي بلدان أوروبا التي كانت في حروب مستمرة مع المسلمين لأسباب دينية وتاريخية واقتصادية معروفة، وبشكل خاص البلدان التي تطل منها على البحر المتوسط. وتعد الحروب التي جرت بين الجانبين في آسيا الصغرى وفلسطين والشام وصقلية والأندلس وبلاد المغرب وشرقي أوروبا، وقائع ذات دلالات كبرى في طبيعة العلاقات بين المسلمين والأوروبيين. وبسبب ذلك فإن المجتمعات الأوروبية كانت تُكن عداء شديدا للمسليمن ولا تقبل إقامتهم بينها. ومما كرس ذلك العداء أكبر محاكم التفتيش التي أنشأتها البابوية في مختلف المدن بأوروبا بموجب قرارات المجمع الديني الذي عقد في مدينة "تور Tours بفرنسا عام 1163 م من أجل منع ممارسة العقائد الأخرى من غير المسيحية في القارة ومحاربة الأفكار المشككة في تلك الديانة كما تُقدمها البابوية.

الإعلامية، 1302 هـ، ج 1، ص 15.

1. ابن عامر، الهجرة...، مصدر سابق، ص 133 وما بعدها.

وبعد تراجع الحكم الإسلامي في الأندلس اتسع نطاق تلك المحاكم وشمل الأراضي التي فقدها المسلمون بها، فأنشئت في أسبانيا عام 1478 م، وفي البرتغال عام 1531 م. وبذلك صار المسلمون (ومعهم اليهود) من أكثر المتعرضين لمراقبة أجهزة تلك المحاكم وأحكامها القاسية، خصوصا لما صدرت في حقهم قرارات تنصيرهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم [1]. وبقيت تلك المحاكم قائمة في أسبانبا حتى عام 1834 م، وفي البرتغال حتى عام 1822 م. أما المحاكم البابوية في روما فتأخر إلغاؤها بعد ذلك حتى عام 1965 م. وفي ظل تلك الظروف مجتمعة فإنه كان من الطبيعي أن تظهر معارضة شديدة لوجود المسليمن في أوروبا، وذلك حتى وإن وافقت حكوماتها على تلك الإقامة كما حدث في البندقية بالنسبة إلى العثمانيين في القرن 16 م حيث اضطرت السلطة هناك إلى اتخاذ إجراءات عقابية ضد من يتعرض للمسلمين بالأذى في المدينة، ولكن مع ذلك فإن السلطة كانت تتلقى رسائل من مصادر مجهولة تنبهها إلى الخطر الديني والسياسي الذي يشكله وجود المسلمين في المدينة [2]. وكانت الحكومات الإسلامية تدرك في الواقع كل تلك الظروف التي تحيط بسفر المسلمين إلى أوروبا، ومن أجل ذلك فإنها لم تكن تعطي لذلك السفر أي اهتمام، حتى أنها لم تكن تتخذ بشأنه الإجراءات اللازمة

1. حول تفاصيل ذلك الاضطهاد راجع: كارداياك (لوي)، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تعريب عبد الجليل التميمي، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية،1983 م. وكذلك: بوشرب (أحمد)، مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1996 م. (وهناك مقال مهم حول تاريخ تلك المحاكم وطريقة عملها، منشور على الأنترنت في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)).
2. Lewis, Comment l'Islam…, Op. cit, pp. 116 – 119.

التي توفر الأمن للمسافرين وترعى شؤونهم وتحمي مصالحهم، كما كان حال الحكومات الأوروبية بخصوص سفر مواطنيها إلى بلاد المسلمين، ونقصد بذلك تعيين الوكلاء (أو القناصل) الذين يُسند إليهم رعاية مصالح المسلمين في المدن التي يتواجدون بها في أوروبا، مثلما كانت تفعل حكومات أوروبا في المدن الإسلامية التي يوجد بها مواطنوها، وبشكل خاص في الموانى البحرية التي تتم بها المبادلات التجارية، فكانت تبنى لهم هناك مراكز خاصة تسمى "فندق"، وبها يقيم القناصل الذين تعينهم حكوماتهم لرعاية مصالح رعاياها، ويقصدها التجار للمبيت وإبرام صفقاتهم. وهي مبان تتشكل من ساحة وسطى تحيط بها بيوت للسكن ومخازن لحفظ البضائع، ومكاتب لإدارة الأعمال المختلفة[1]. ومع أن الدول الإسلامية هي التي كانت تُرخِّص للحكومات الأوروبية لإقامة تلك المؤسسات في أراضيها وفق معاهدات كانت تعقدها معها[2]، إلا أننا لا نعرف أية دولة منها سارت على منوال ذلك وأقامت مثل تلك المؤسسات في المدن الأوروبية لحماية رعاياها هناك، ومنها الدولة العثمانية التي لم تبدأ العمل بذلك النظام إلا في عام 1792 حيث قررت أن تعين سفراء دائمين لها في مدن أوروبا الكبرى، فبدأت بلندن عام 1793 م، ثم اتبعتها بباريس وبرلين وفيينا. ولكن مع ذلك فإنه كما يستخلص من فتوى بيرم الخامس السالفة الذكر ولتلك الأسباب كلها، فإنه في الوقت الذي كان الأوروبيون يأتون إلى بلاد المسلمين ويقيمون بها لأغراض

1. Dhina (Atallah), Le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou hammou Moussa Ier et d'Abou Tachfine I[er], Alger, O.P.U, s.d., p. 60.

2. راجع كمثال على ذلك معاهدة عام 1286 م بين دولة بني عبد الوادي في تلمسان ومملكة أرغون في أسبانيا في: Ibid, Le royaume Abdelouadide …, op. cit, pp 206 - 209

مختلفة، من تجارة ورحلة وحج، فإن المسلمين لم يكونوا يذهبون في المقابل إلى بلادهم إلا في إطار محدود جدا، وكان ذلك في العصر الوسيط كما كان في العصر العثماني أيضا مثلما استخلص ذلك المؤرخ الأمريكي برنارد لويس[1].

وكانت تلك الظروف التي تتحكم في سفر المسلمين إلى أوروبا هي التي أحاطت بالهجرة التي قام بها "حكمت" إلى أسبانيا. ولكن حالة "حكمت" في الواقع كانت أشد وأخطر من حالة أي مسلم آخر غيره، لأنها لم تكن سفرا عاديا، وإنما كانت هجرة، أي سفرا طويل الأمد. وفضلا عن ذلك فإن "حكمت" لم يذهب إلى أوروبا لممارسة نشاط حر كما يفعل المسافرون العاديون، وإنما ذهب ليخترق مؤسسة رسمية ومهمة تابعة للدولة، وهي مؤسسة الجيش.

## 5. دوافع الهجرة في القصة :

إن هجرة حكمت إلى إسبانيا من حيث الظاهر وكما صورها لنا الديبلوماسي الفرنسي، هي هجرة كسائر الهجرات التي قام ويقوم بها سائر البشر في التاريخ، فرادى وجماعات، ويعني ذلك أنها لم تكن هجرة عشوائية وإنما تحكمت فيها دوافع ومبررات. وهو موضوع حاول صاحب المذكرات في الواقع شرحه في الأسطر الأولى من القصة. ولكن المبررات التي ذكرها لم تكن مبررات واقعية أخبر بها كما أخبر بسائر الأحداث التي شكلت موضوع القصة، وإنما استخلصها من سياق الأحداث ذاتها. وتمثلت تلك المبررات حسب رأيه في "الملل"

1. Lewis (Bernard), Comment l’Islam a découvert l’Europe, tr. De l’anglais par Annick Pélissier, Paris, La Découverte, 1984, pp. 83 et suiv.

الذي صار يشعر به "حكمت" تجاه موطنه (الجزائر) وخيبة الأمل التي أصابته من جراء الفشل في ممارسة القرصنة التي كان يحترفها والده وتعلمها هو عنه. وكان مبعث ذلك الملل وتلك الخيبة أن "حكمت" حدث له وهو صغير، أن رافق والده في إحدى الرحلات البحرية لممارسة القرصنة، فوقعا معا أسيرين في قبضة البحارة الأسبان، وبيع "حكمت" لأحد الوجهاء بأسبانيا، وبعد بضع سنوات قضاها "حكمت" في خدمة سيده الإسباني، أطلق هذا الأخير سراحه، وعاد بذلك إلى وطنه. ولكن "حكمت" الذي ورث عمل القرصنة عن والده ما فتيء أن عاد إلى البحر مرة ثانية وقصد السواحل الإسبانية بحثا عن الغنائم البحرية، إلا أن الأسبان أسروه هذه المرة أيضا، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دُفعت لهم في حقه فدية كبيرة. ولما عاد "حكمت" بعد ذلك إلى الجزائر صار يشعر بالملل تجاه وطنه، وقرر أن يتخلى عن القرصنة التي فشل في ممارستها وقادته إلى الأسر مرتين، ورأى أن يبحث عن وسيلة أخرى غيرها يجمع بها الثروة، وكانت هي العودة إلى أوروبا، ولكن ليس كأسير، وإنما كمهاجر.

وذلك المبرر الذي فسر به الديبلوماسي الفرنسي هجرة "حكمت" إلى أوروبا له في الواقع جانب كبير من الصحة، لأن "حكمت" استطاع بالفعل - كما سنبين ذلك - أن يغير مجرى حياته بوصوله إلى مصادر الثروة في أوروبا، ومنها السفر إلى الهند [1] التي كانت تمثل آنذاك أحد أسواق التجارة العالمية الكبرى. ويقول الديبلوماسي الفرنسي في ذلك - بناء على ما أخبرته به الزوجة نفسها - بأن "حكمت" جمع من تينك

1. يقصد بالهند هنا : أمريكا الجنوبية وليس الهند الحالية. لأن أمريكا هي التي كانت آنذاك مستعمرة إسبانية أما البرتغال فكانت مستعمرة برتغالية.

الرحلتين مالا معتبرا، أو حسب تعبير صاحب المذكرات نفسه: "إن تينك الرحلتين أغنتاه كثيرا Ces deux voyages l'enrichirent beaucoup" (ص 470). ويبدو أن "حكمت" قد استثمر تلك الأموال في تجارة ما من أجل أن ينميَها، ولكن ذلك لم يكن بطريقة مباشرة وإنما غير مباشرة، وذلك من خلال المؤسسات التجارية الحرة في أوروبا. ولعل ذلك ما قصدته الزوجة بعبارة "المصالح المهمة affaires d'interêt" التي ذهب لقضائها في هولندا ثم في أنكلترا في أثناء عودته إلى الجزائر (ص 471). وقد ظهرت علامات الثراء على حكمت بالفعل لما عاد إلى الجزائر؛ حيث خصص لسكنى أسرته منزلا منفردا، وجعل في خدمة زوجته عددا من الخدم. وبعدما قرر الذهاب إلى إستانبول فإنه كان يريد - من غير شك - العيش في مستوى اجتماعي عال، باعتبار إستانبول آنذاك أعظم مدينة في الشرق لكونها عاصمة للدولة الإسلامية الكبرى وهي الدولة العثمانية. وفي أثناء سفره فإنه قام بجولة واسعة شملت مصر وفلسطين ولبنان حيث متع زوجته برؤية المعالم التاريخية والدينية في بلاد الشرق. وكان في أثناء ذلك يتبعه الخدم الذين يقومون بحمل أمتعته ويسهرون على راحته وراحة زوجته وولديهما. وفي أثناء تلك الرحلة فإنه كان "يشتري لزوجته كل ما هو نادر وعجيب ويشبع فضولها ويستجيب لذوقَها" (ص 476). ومن ثمة فإن الطمع في الاستيلاء على المبالغ المالية التي كان يحملها - وكانت من غير شك كبيرة - كان واحدا من الدوافع التي أدت كما يبدو إلى اغتياله على يد المسيحيين في لبنان، ذلك إلى جانب التعصب الديني لديهم بطبيعة الحال كما ذكر صاحب المذكرات (ص 477). وقد

ذكر صاحب المذكرات أيضا أن الزوجة لما اقتيدت إلى منزل الشيخ قاسم الذي تواطأ في عملية اغتيال "حكمت"، كانت "قد انتُزع منها كل ما كان لديها من مال، وحلي، وأثاث ثمين، ولم يُترك لها سوى ما لا يستطاع نزعه. وأخبرها الشيخ قاسم بأن "عليها أن تدفع له مبلغ ثلاثة آلاف دوقة من الذهب مقابل فديتها مع ولديها " (ص 479). وكل تلك المؤشرا تبين بأن "حكمت" قد حقق في إسبانيا ما لم يستطيع تحقيقه في الجزائر بواسطة القرصنة.

ولكن بعض الأحداث الأخرى المرتبطة بهجرة "حكمت" يمكن أن نستخلص منها مبررات أخرى. ذلك أن تلك الأحداث، وبشكل خاص الأساسية منها، تبين أن هجرة حكمت إلى أوروبا لم تكن كسائر الهجرات العادية، وإنما كانت هجرة ميزها حب المغامرة والتحدي أكثر مما ميزها البحث عن الثروة، وذلك لأن تلك الهجرة تمت إلى بلاد تحكمت فيها ظروف تاريخية واجتماعية ودينية خاصة، كما جاء توضيح ذلك في العنصر الرابع من هذا العمل، بحيث لم يكن من الممكن أن يهاجر إليها مسلم إلا إذا توفرت فيه مؤهلات وقدرات في مستوى تلك الظروف، وهو الحال الذي كان عليه "حكمت"، كما سيأتي بيان ذلك في العنصر الموالي. وذلك لأن "حِكمت" لما هاجر إلى إسبانيا فإنه لم يمارس بها عملا عاديا، كأن يكون تجارة أو صناعة أو نشاطا محددا في مؤسسة حرة، وإنما اخترق حواجز مؤسسة ملكية هامة تُشكل الدعامة الأساس للدولة الإسبانية، وهي مؤسسة الجيش التي التحق بها "حكمت" وصار من كبار الضباط فيها، وذلك في الأسطول كما في

فرقتي المدفعية والخيالة، دون أن يكتشف أمره أحد، إلى أن عاد إلى موطنه في الجزائر.

وبالنظر إلى ذلك التحدي الذي قام به "حكمت" ونجح في أدائه، وهو دخول الجيش الإسباني، فإنه من الممكن أن نقرأ في ذلك مبررا آخر قد يكون وراء تلك الهجرة، وهو الجوسسة لفائدة الدولة العثمانية، سواء بالتكليف المباشر من الباب العالي، أم من النظام التابع له في مدينة الجزائر. وما يدعم هذه القراءة في تفسير الهجرة التي قام بها "حكمت"، أن تلك الهجرة قد تمت إلى دولة كانت آنذاك تشكل ثقلا عسكريا قويا في أوروبا، وتدعي خوض الحرب باسم المسيحية في البحر المتوسط ضد الدولة العثمانية، وكانت تطمح حتى إلى استرجاع القسطنطينية منها باعتبارها عاصمة قديمة لدولة مسيحية هي الدولة البيزنطية [1]. ومن جهة ثانية فإن "حكمت" كان يتوفر على المؤهلات الحقيقية التي تجعله قادرا بالفعل على القيام بمهمة الجوسسة في إسبانيا، وكان أهم تلك المؤهلات، شخصيته العسكرية التي ورثها عن والده الذي كان بحارا في الأسطول بالجزائر، ثم معرفته الجيدة للغة القشتالية وبمظاهر الحياة الخاصة بالمجتمع الإسباني، وهي معرفة اكتسبها في أثناء فترة الأسر التي قضاها في أسبانيا. ومن جهة ثالثة فإن "حكمت" لما رجع إلى الجزائر ما لبث أن قرر أن يتوجه إلى إستانبول عاصمة الدولة العثمانية، وهو قرار نفذه بعد سنة واحدة من بقائه في الجزائر، مما يوحي أنه كان ينوي أن يحمل تقاريره الشفوية وربما المكتوبة أيضا عن الجيش الإسباني

1. عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الأسباني ـ العثماني على الأيالات المغربية في القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع 10 ـ 11/ جانفي 1978 م، ص. 9ـ10.

إلى رجال الباب العالي. ولكن "حكمت" لم يحالفه الحظ في ذلك لأنه اغتيل على يد المسيحيين الموارنة في لبنان، قبل وصوله إلى إستانبول، وهو اغتيال لا يستبعد أن تكون وراءه المخابرات الإسبانية، لأنها تكون قد علمت بقصته بعدما غادر مدينة "أنفرس" حيث كان يعمل ضمن حاميتها العسكرية، ثم عودته إلى الجزائر. ومصدر معلوماتها في ذلك هو قائد السفينة الأنكليزية التي أقلته هو وزوجته من أنكلترا إلى المياه الإقليمية الاسبانية حيث وجد السفن الجزائرية التي صعد على متنها وعاد إلى الجزائر. ومن جهة ثالثة فإن الدولة العثمانية كانت كسائر الدول القديمة والحديثة تدرك أهمية الجوسسة على الدول المعادية لها، ولذلك فإنها لم تكن تتوانى في البحث عن الأشخاص المؤهلين لذلك العمل بين رعاياها وزرعهم في أجهزة تلك الدول ليوافوها بالمعلومات التي هي في حاجة إليها بخصوصها، وكان أهمها بطبيعة الحال المعلومات العسكرية. وكان "حكمت" واحدا من الأشخاص الذين توفرت فيهم تلك المؤهلات، ويستطيع القيام بذلك العمل كما قام به رجال آخرون قبله، ومن دون شك بعده أيضا، وكان منهم واحد يدعى "حيدر" زرعه الباب العالي ضمن أتباع الأمير "جم" ابن السلطان محمد الفاتح والمنشق عن أخيه السلطان بايزيد الثاني عامة 1482 م، ولما فشل في الاستيلاء على الحكم فإنه فر إلى جزيرة رودس التي كان يسيطر عليها آنذاك فرسان القديس يوحنا، لطلب المساعدة منهم ضد أخيه بايزيد. ومن جزيرة "رودس" توجه الأمير العثماني إلى مدينة "نيس" في فرنسا، ومنها إلى روما في عام 1489 م، وبقي مقيما هناك حتى عام 1494 م حيث رافق الملك الفرنسي

إلى مدينة نابولي، وفي هذه المدينة الأخيرة وافته المنية في 25 فبراير من السنة الموالية. وفضلا عن "حيدر" فإن السلطان بايزيد أرسل شخصا آخر في عام 1486 م إلى فرنسا للمهمة نفسها، وقد اختاره من مؤسسة البحرية التي كان رجالها على معرفة بلغات الأوروبيين ونظم حياتهم، وكان اسمه باراك رئيس. وقد ترك الجاسوسان المذكوران بعضا من تقاريرهما المكتوبة حول المهمة التي كلفا بها وكانا يرسلانها إلى الباب العالي، وتضمنت تلك التقارير تفاصيل مهمة عن تحركات الأمير "جم" في أوروبا ولقاءاته بالملوك ورجال السياسة فيها والذين كانوا يحاولون استغلاله لإثارة الاضطراب في الدولة العثمانية. بل أن تلك التقارير تضمنت أخبارا حتى عن التحركات التي كان "جم" يذهب فيها إلى الملاهي[1].

## 6. شخصيات القصة :

اشتركت في حبك قصة الهجرة التي قام بها "حكمت" شخصيات مختلفة، من الجزائرية إلى الأوروبية إلى المشرقية، ومن المسلمة إلى المسيحية. ولكن كلها تتدرج حسب أهمية أدوارها في الأحداث في مستويين: شخصيات محورية، وأخرى ثانوية. فإذا أتينا إلى الشخصيات المحورية فنجدها تتمثل في شخصية واحدة هي "حكمت". وهو ـ كما ذكر شوفاليي دارفيو نقلا عن الزوجة الهولندية ـ ابن لضابط في البحرية الجزائرية fils d'un capitaine corsaire، ويعني ذلك أنه ورث مهنة ركوب البحر والعمل العسكري على متن الأسطول عن والده الذي كان يأخذه وهو صغير برفقته في أسفاره البحرية.

1. Lewis, comment l'Islam …, op. cit., pp. 120-121, 122-123

وبذلك يكون والده ليس فقط أنه غرس فيه حب العمل البحري القائم على المغامرات ومواجهة الصعاب، وإنما أطلعه على أسراره وعلَّمها أياه أيضا. وبذلك تَشكّل أول مظهر من شخصية حكمت وهو المظهر "العسكري" الذي دفعه فيما بعد إلى المغامرة بدخول الجيش الأسباني حيث نجح في عمله ورُقي بسبب ذلك في الرتب العسكرية حتى صار ضابطا في فرقتي الخيالة ثم المدفعية، وليس ذلك فحسب بل أن ذلك الجانب العسكري من شخصيته ساعده حتى في العمل في الأسطول الملكي والسفر على متنه إلى الهند.

ومن جهة ثانية فإن "حكمت" كان يتمتع بذكاء حاد، ونباهة في التفكير، ورجاحة في الرأي، فضلا عن قوة الصبر، واستقامة الخُلق، والبنية الجسدية القوية والشجاعة. وهي صفات شهدت له بها زوجته الهولندية كما ذكر الدبلوماسي الفرنسي حينما التقى بها في لبنان عام 1683 (ص 469). بل أن أحداث قصته ذاتها تشهد بتوفر تلك الصفات فيه. فهي التي جعلته - من غير شك - يفلح في كسب عطف ومحبة السيد الأسباني الذي عاش أسيرا لديه لمّا قُبض عليه في المرة الأولى وهو صغير برفقة والده في عرض البحر، حتى أن ذلك السيد أطلق سراحه دون فدية بعد بضع سنوات قضاها "حكمت" في خدمته. وتلك الصفات هي التي جعلته أيضا يستفيد من سنوات أسره تلك، حيث تعلم اللغة القشتالية إلى حد الإتقان il savait en perfection la langue castilane حسب تعبير الدبلوماسي الفرنسي (ص 469 - 470). ولم يكن ذلك التعلم - كما يبدو - تحدثا فقط وإنما كتابة أيضا. ولكن "حكمت" قد تجاوز- كما يبدو - في الاستفادة من الأسر حد تعلم اللغة

القشتالية، إلى الاطلاع على تاريخ أسبانيا ومعرفة ثقافتها وطبيعة مجتمعها وطريقة عمل مؤسساتها، وذلك ما ساعده في توفير الشروط المناسبة لنجاح مشروع هجرته، وأهمها جميعا تقمص الشخصية الأسبانية ذاتها حتى لا ينكشف أمره ويتعرض بذلك لخطر المتابعة من قبل السلطات الأمنية باسبانيا. وكان أهم مظهر لذلك التقمص اختياره اسما أسبانيا ونَسَبًا عائليا يعود إلى عائلة مشهورة في أسبانيا، اطّلع "حِكمت" على تاريخها وحفظ تفرع شجرتها عبر تاريخها، وذلك حتى إذا سئل عن أمر يتعلق باسمه ونسبه فإنه يجيب بطريقة تلقائية لا تثير الشك حوله. وذلك الاسم هو: Joseph de Herrera Velasco. وفضلا عن ذلك فإن "حكمت" تدرب أثناء الأسْر على طُرق الحياة الاسبانية بمختلف مظاهرها، من أكل ولباس وحديث وعلاقات عامة وممارسات دينية وغيرها.

كما أن تلك الصفات مكّنته من القدرة على إخفاء شخصيته الإسلامية تماما طوال هجرته، ولكي يفلح في ذلك فإنه كان يتظاهر حتى بالقيام بشعائر دينية على الطريقة المسيحية. وعندما دخل الجيش الأسباني فإنه صار محل إعجاب وتقدير من الجنود والضباط في أكبر الوحدات التي عمل بها، وكان ذلك سببا في ترقيته في الرتب العسكرية. وليس ذلك فحسب بل إن تلك الصفات جذبت إليه قلوب النساء أيضا لما كان في مدينة "أنفرس" ببلجيكا ضمن حاميتها العسكرية، وصارت كثيرات منهن يتمنين أن تكون لهن علاقة معه. ولكن "حكمت" ـ الذي حافظ على إسلامه ـ لم يستسلم لإغراءاتهن" وتجنب الوقوع في بؤرة اللهو والمجون معهن وفضل أن يرتبط بواحدة منهن بطريقة شرعية وهي الزواج

كما يوجب عليه ذلك دينه الإسلامي الذي حافظ عليه ولم يغيره، حتى أن شوفاليي دارفيو ذكر ذلك باستغراب وتعجب كبيرين، فقال بأن "حكمت" بعدما أسر مرتين على يد الأسبان أثناء ممارسته القرصنة في شواطيء أسبانيا قرر أن يجرب حظه في البحث عن الثروة بالهجرة إلى أوروبا "ودون أن يغير دينه إلى النصرانية et sans ambrasser le christianisme" (ص 469).

ثم أن "حكمت" لما عاد إلى الجزائر فإنه أظهر صفة أخرى كان يتوفر عليها وهي صفة التسامح تجاه غيره والثبات على العهد تجاههم، وبدا ذلك من خلال معاملته لزوجته الهولندية التي ترك لها حريتها الدينية الكاملة كما وعدها قبل وصوله إلى الجزائر. وعلى الرغم من الضغوط التي مورست عليه في الجزائر كما في مصر وفلسطين (حينما كان في رحلته معها والتي كان من المقرر أن تقودهما إلى إستانبول) من أجل أن يرغمها على تغيير دينها واعتناق الدين الإسلامي، فإنه أبى ذلك وكان يجيب دائما على من يطلب منه ذلك بأنه يُحبها كثيرا ولا يريد أن يسبب لها أي أذى، ولكنه يعتقد أن طول الزمن ومعاملته الطيبه لها سيقودانها في النهاية إلى ما يتمناه لها، وهو اعتناق الإسلام.

وأما الشخصيات الثانوية في القصة فهي كثيرة، لأنها هي التي تمثل المحيط الذي كان يتفاعل معه حكمت في نشاطاته اليومية أثناء هجرته التي قادته إلى دخول الجيش الإسباني، وسفره إلى الهند، وعمله في حامية "أنفرس" في بلجيكا، وكذلك أثناء عودته إلى الجزائر ثم رحلته إلى إستانبول. ولكن تلك الشخصيات لم يأت ذكرها جميعا أو حتى

العدد اليسير منها في مذكرات الديبلوماسي الفرنسي، وإنما اقتُصر على عدد محدود جدا منها فقط على قدر الملخص الذي شُرحت فيه قصته كما ذكرت ذلك زوجته الهولندية. ويأتي في مقدمة تلك الشخصيات زوجته الهولندية، واسمها هلان دان Helene Danes، وهي التي وقع اختياره عليها لكي يرتبط بها ارتباطا شرعيا، بين بنات عديدات كن يتقربن منه في مدينة "أنفرس" ببلجيكا ويردن إقامة علاقة معه. وكانت تلك المرأة ابنة لأحد أمناء الخزينة الملكية هناك. ويليها الشخصان اللذان شهدا في عقد زواجهما بصحة نسب "حكمت" إلى العائلة التي كان يحمل اسمها، وأحضرهما "حكمت"من مدينة بروكسل، وفي ذلك دليل على تشعب علاقاته الاجتماعية والمهنية. ثم ولده الأول الذي لم يذكر لنا صاحب المذكرات مكان ولادته، ونرجح أن يكون ذلك في هولندا أو إنكلترا حيث مر "حكمت" أثناء عودته إلى الجزائر. ثم قائد السفينة الأنكليزة التي قدم على متنها من إنكلترا نحو مدينة "كادي" الإسبانية، وذلك القائد هو الذي استنجدت به الزوجة الهولندية لما أراد "حكمت" أن ينقلها في عرض البحر إلى السفن الجزائرية التي اعترضت السفينة الأنكليزية في المياه الإسبانية. وحاول ذلك القائد برفقة بحارته أن يمنع "حكمت" من القيام بعمله، ولكن هذا الأخير الذي سانده البحارة الجزائريون الذين صعدوا على متن السفينة الإنكليزية، فقبل أن يدخل مع قائد السفينة في معركة تؤدي إلى إراقة الدماء، فإنه خيره بين أن يُسلم له زوجته أو أن يُقاد هو وسفينته إلى الجزائر، فاختار القائد الإنكليزي الاقتراح الأول بعدما رأى استحالة المقاومة والتغلب على "حكمت" ومن

معه من البحارة الجزائريين. ويبدو أن الربان الإنكليزي الذي كان متوجها إلى ميناء "كادي" الإسباني قد أخبر عند وصوله إلى هناك، السلطات الإسبانية بما حدث له في عرض البحر مع "حكمت" والسفن الجزائرية،" وإن هذه السلطات قد حققت في القضية واكتشفت قضية "حكمت". وبناء على ذلك فإن الأجهزة الأمنية الإسبانية تكون قد تتبعته، وهي التي دبرت عملية اغتياله في لبنان على يد المسيحيين الموارنة. ويلي الربان الأنكليزي من الشخصيات التي قامت عليها أحداث القصة، أقارب "حكمت" ومعارفه في الجزائر، وهم الذين حاولوا إقناع زوجته بالتخلي عن دينها واعتناق الإسلام حتى تصير امرأة منسجمة في المجتمع الجزائري المسلم الذي أصبحت تعيش فيه. وبعد ذلك يأتي الولد الثاني الذي رُزق به "حكمت" في مدينة الجزائر. ثم الأشخاص الذين زارهم "حكمت" أثناء رحلته إلى إستانبول، في مصر وفلسطين ولبنان ومنهم القنصل الفرنسي في مدينة صيدا. ويأتي بعدهم صاحب السفينة المسيحي الماروني الذي اتصل بـ"حكمت" في مدينة صيدا وعرض عليه نقله إلى مدينة طرابلس ليواصل رحلته منها إلى إستانبول. وهذا الشخص هو الذي دبر مؤامرة اغتيال "حكمت" بالتنسيق مع الشيخ قاسم الذي كان هو أيضا مسيحيا، وحاكما لإحدى المناطق هناك بين مدينتي صور وطرابلس. وإلى منزل هذا الشيخ نقلت الزوجة وولداها بعد مقتل زوجها في السفينة. ثم راهبات دير "مَرهنَّة" حيث نُقلت الزوجة بعد مقتل الشيخ قاسم على يد أخيه الذي صار شيخا مكانه، ودخل هو الآخر ضمن الشخصيات التي اشتركت في صناعة أحداث القصة.

ثم جماعة اليسوعيين الذين ساهموا في تهريب الزوجة وولديها إلى السفينة الإيطالية التي أقلتها إلى البندقية لتعود منها إلى بلادها في بلجيكا.

## 7. المسار الجغرافي للقصة :

تجمع القصة في بنيتها الجغرافية بين مناطق كثيرة ومختلفة من حيث الموقع والأهمية والشهرة والنشاط. ولكنها ترتبط جميعا بخيوط تمثل مسار رحلة "حكمت" أثناء هجرته، وتشكل نسيج قصته. فتبدأ تلك البنية بمدينة الجزائر التي تمثل مكان مولده، وبالتالي موطنه الذي ترعرع فيه؛ وتأتي بعدها السواحل الإسبانية حيث ذهب ليمارس القرصنة مرتين ووقع في كليهما أسيرا في يد الأسبان ؛ ثم تأتي المحطة الثالثة وهي إسبانيا التي توجه إليها ثلاث مرات، الأولى والثانية منها لما أسر على يد البحارة الأسبان، والثالثة لما هاجر إليها وجال أراضيها بحثا عن العمل، واستطاع أثناء ذلك أن يلتحق بالجيش الملكي فيها ؛ والمحطة الرابعة هي الهند التي توجه إليها مرتين وهو عسكري على متن الأسطول الملكي، وحقق من ذلك ثروة معتبرة ؛ والمحطة الرابعة هي مدينة أنفرس Anvers في بلجيكا حيث عمل في حاميتها ضابطا في فرقة الخيالة، ثم في فرقة المدفعية، وهناك تزوج بامرأة هولندية، وكان موجودا هناك في سنة 1675 م ؛ والمحطة الخامسة هي هولندا حيث توجه برفقة زوجته لقضاء بعض الشؤون الخاصة به؛ ومن هناك توجه الزوجان في رحلة مماثلة إلى أنكلترا التي تمثل المحطة السادسة في

قصة "حكمت"، وهناك أخبر زوجته بأنه ينوي العودة إلى أسبانيا للعيش في القصر الملكي بدلا من مدينة "أنفرس" التي يشعر فيها بالغربة ؛ ومن ثمة ركبا سفينة أنكليزية لتقلهما إلى مدينة كادي Cadis الأسبانية على المحيط الأطلسي، والتي كانت ستشكل المحطة السابعة في مسار قصته، ولكن السفينة الأنكليزية ما إن اقتربت من المدينة حتى صادفت السفن الجزائرية، وهناك أخذ "حكمت" زوجته وولده وأمتعته ونقل الكل إلى إحدى تلك السفن، ومن ثمة تغيرت وجهة رحلة الزوجين وصارت مدينة الجزائر بدلا من مدينة كادي الأسبانية. وفي مدينة الجزائر التي تشكل المحطة الثامنة في رحلة "حكمت" انتهى الجزء الأول من مسار هجرته، وهو المسار الأوروبي، ليبدأ بعدها مسارا آخر هو الذي قاده نحو الشرق، إذ رأى أن يرحل عن الجزائر ويذهب إلى إستانبول عاصمة الدولة العثمانية ليعيش بها هو وعائلته بصفة نهائية. وقرر أن يأخذ أثناء تلك الرحلة زوجته إلى الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين. فكانت أول محطة فيها مدينة الأسكندرية، ومنها توجه إلى فلسطين حيث زار مدينة القدس، وهناك رأت زوجته الكنائس المسيحية ومنها كنيسة القيامة التي تُعرف عند الأوروبيين باسم l'Eglise de S. Sepulcre، حيث يعتقد وجود قبر المسيح عليه السلام، ويعود بناؤها إلى عهد قسطنطين الكبير سنة 326 م، وجُدد بناؤها في عهد الصليبين بين عامي 1131 ـ 1144 م، وتعتبر أهم المعالم المسيحية في فلسطين. ومن القدس قاد "حكمت" زوجته وولديه إلى مدينة "بيت لحم" حيث ولد السيد المسيح عليه السلام، وبها توجد كنيسة

المهد التي بناها الإمبراطور قسطنطين الكبير أيضا عام 330 م على موضع ولادة المسيح ؛ وبعدها انتقل "حكمت" وزوجته وولداه إلى مدينة الناصرة، مدينة السيدة مريم، وفيها قضى المسيح عليه السلام أغلب حياته، فسمي هو ناصريا، وأتباعه نصارى. وهناك انتشر خبر "حكمت" وزوجته الهولندية بين السكان، باعتباره مسلما متزوجا مسيحية. ومن فلسطين توجه حكمت نحو لبنان ونزل في مدينة صيدا، وهناك اتصل به أحد المسيحيين وعرض عليه خدمته بنقله على متن سفينته إلى طرابلس ليواصل رحلته من هناك إلى إستانبول. وقد قبل حكمت تلك الخدمة وأركب عائلته وخدمه وأمتعته على متن السفينة التي أخذت وجهتها نحو الشمال، وفي الليلة الثانية عرجت نحو الساحل بهدوء وركب عليها عدد من الرجال المسلحين المسيحيين المتواطئين مع قائد السفينة، وهاجموا حكمت في نومه، فضربه أحدهم بصخرة كبيرة على رأسه، وانهال عليه الباقون بخناجرهم، فمات من تلك الضربات الغادرة. ونقلت جثته إلى الساحل ودفنت هناك، ولكن الكلاب التائهة اكتشفتها ليلا وأخرجتها ومزقتها بأنيابها. وهنا على الشواطيء اللبنانية ليس بعيدا عن مدينة صيدا انتهى مسار الرحلة المشرقية التي باشرها "حكمت" بعد عودته من هجرته التي قادته إلى أوروبا، وكان ينوي التوجه فيها إلى إستانبول. أما الزوجة الهولندية والولدان فقد اقتيدوا إلى منزل الشيخ قاسم، وهو مسيحي أيضا، وهو الذي تواطأ مع قائد السفينة على قتل "حكمت"، وتولى إرسال الرجال المسلحين الذين نفذوا عملية الاغتيال. ومن منزل ذلك الشيخ

الذي ما فتيء أن قتله أخوه وحل محله في منصب المشيخة، اقتيدت الزوجة وولداها إلى دير مرهنة Marhanna، وهناك وبالتنسيق مع رئيس جمعية اليسوعيين في مدينة عنتورة (عين طرة) Antoura تم تهريبها إلى سفينة إيطالية لتنقلها إلى البندقية، ومنها تعود إلى مدينة "أنفرس" حيث أقامت علاقتها لأول مرة مع "حكمت" وأبرمت عقد قرانها معه.

### 8. المظاهر الدينية في القصة :

يمثل الدين مظهرا حياتيا بارزا في قصة "حكمت"، مما يعبر عن المكانة التي كان يحتلها الدين في الحياة آنذاك، وذلك بأوروبا كما في البلاد الإسلامية. وأول ما بدا ذلك في شخصية حكمت ذاتها، فباعتباره مسلما محافظا على دينه فإنه قرر الهجرة من الجزائر إلى إسبانيا والقيام بمغامرته الخطيرة كما سبق شرحها، "دون أن يعتنق النصرانية et sans embrasser le christianisme" كما عبر عن ذلك شوفاليي دارفيو. واضطُر في سبيل ذلك إلى تقمُّص شخصية رجل أسباني، وتظاهر حتى بالقيام بالشعائر المسيحية كما شهدت بذلك زوجته. ولكن تمسك "حكمت" بإسلامه بدا بشكل أوضح لما تزوج في مدينة "أنفرس" ببلجيكا، حيث قرر "بعد بضعة أشهر فقط من زواجه Quelques mois après son mariage" العودة في رحلة تمويهية إلى الجزائر، حيث توجه إلى هولندا ثم إلى أنكلترا، ومنها كانت طريقه إلى الجزائر. وكان أثناء ذلك برفقة زوجته الهولندية التي لم تكن تعلم بأن طريقهما أثناء تلك الرحلة كانت نحو الجزائر.

وكما يستخلص من أحداث القصة أن ابنا وُلد لهما أثناء تلك الرحلة، وكان ذلك إما بهولندا أو أنكلترا. وهذا يقودنا إلى الجواب عن السؤال الذي سبق طرحه حول السبب الذي جعل حكمت يقرر "بعد بضعة أشهر فقط من زواجه" كما سبق ذكره، ترك عمله في حامية مدينة أنفرس والعودة إلى الجزائر. وذلك الجواب هو من غير شك أن "حكمت" كان يعلم أن زوجته صارت حاملا منه، ومن ثمة لم يشأ أن يولد ابنه في أوروبا ويُعمَّد على الديانة النصرانية ثم ينشأ بها على تلك الديانة أيضا كما هو حال والدته، وإنما أراد أن تكون ولادته في بلاد الإسلام لينشأ على دين والده وهو الدين الإسلامي. ولكن قوة القدر كانت أكبر من قوته، لأن الابن وُلِد - كما يستخلص من أحداث القصة - أثناء رحلته إلى الجزائر. غير أن تلك الولادة لم يكن لها تأثير على مستقبل الولد الديني لأنه وصل إلى الجزائر وهو في الأشهر الأولى من عمره، مما كان سيتيح له أن ينشأ على الدين الإسلامي. وبدأت تلك النشأة بشكل واضح لما أخذ الولد من والدته على يد أقارب "حكمت" وأُجري له الختان كما يُجرى ذلك لأبناء المسلمين عموما (ص 474). وكان ذلك الخوف من "حكمت" على دين ولده ليس في الواقع خوفا وهميا وإنما كان حقيقيا، وذلك من جهة لأن "حكمت" لم يكشف أبدا حقيقة دينه، ومن جهة ثانية فإن الوسط الذي كان يعيش فيه كان وسطا لا يؤمن بحرية التدين، ومتعصبا للدين المسيحي، وفي الوقت ذاته معاديا لكل دين آخر ومن ذلك الدين الإسلامي. مما كان سيؤدي حتما إلى ولادة ابنه ونشوئه على الدين المسيحي. ويكفي لبيان ذلك أن

الزوجة - لما ولد لها الابن الثاني في مدينة الجزائر فإنها قامت بتعميده سرًّا (ص 475). والحماية الدينية تلك التي أراد "حكمت" أن يوفرها لأولاده كانت هدفا حتى للباب العالي نفسه باعتبارها جزءا من سياسته العامة في إدارة الدولة، وبدا ذلك عندما أرسل الأمر إلى السلطات المحلية في لبنان للبحث عن الزوجة وانتزاع الولدين منها حتى لا تأخذهما معها إلى بلدها ويبقيا في أراضي الدولة العثمانية حيث ينشآن على الإسلام On fut averti qu'il était venu un ordre de la Porte de chercher la Flamande, et d'enlever ses deux enfants pour les élever dans la religion Mahometane". ولكن رجال الشرطة العثمانيين الذين كلفوا بتنفيذ ذلك الأمر لم يفلحوا في مهمتهم لأنهم كانوا في أراض يديرها مسيحيون وكانت الزوجة مختفية في دير مرهنَّة الذي لم يكن بإمكانهم دخوله، ومن أجل ذلك توجهت مراقبتهم إلى السفن الفرنسية والهولندية التي كانت راسية في الميناء لعل الزوجة تُنقَل إليها مع ولديها. ولكن المسيحيين الموارنة بالاشتراك مع رئيس جماعة اليسوعيين استطاعوا إخفاءها مع ولديها عن الأنظار داخل الدير إلى أن نقلوهم جميعا بطريقة مموهة إلى شاطيء بعيد عن أنظار الشرطة العثمانية، وهناك أركبوهم على متن زورق صغير نقلهم إلى سفينة إيطالية، وهي التي أقلتهم إلى البندقية، ليواصلوا إبحارهم بعد ذلك إلى مدينة "أنفرس" في بلجيكا (ص 481 - 482).

وكان المظهر الديني الثاني الذي ميز قصة "حكمت" يمثل موقف المسلمين من الزوجة الهولندية باعتبارها مسيحية، وذلك ليس

لكونها امرأة عادية جاءت إلى بلاد الإسلام، وإنما لكونها زوجة لأحد المسلمين، وهو ما لم يقبلوه ويرضوا به، وظهر ذلك أولا في الجزائر حيث بذلت جهود كبيرة لحمل الزوجة الهولندية على التخلي عن دينها واعتناق الإسلام On fit tout ce que l'on pût pour la faire changer de religion. فكان ذلك في البداية بالتقرب منها وترجِّيها وملاطفتها والمعاملة الحسنة معها، ولكن الزوجة لما أصرت على البقاء على دينها فإن ذلك الأسلوب ما فتيء أن تحول إلى قسوة وتهديد ورُقية، ثم إلى ضرب وعض لأصبع السبابة، وأخيرا إلى عزل في غرفة مظلمة بحيث لا يقترب منها أحد سوى الخدم اللائي كن يأتينها بالأكل والشرب ويشبعنها بعد ذلك سبا وشتما. ولكن في خضم تلك الضغوط النفسية والجسدية، فإن زوجها لم يتخل عنها، فكان يأتي لرؤيتها مرات عديدة في اليوم الواحد، ويكلمها ويحاول أن يخفف عنها. وحسبما أخبرها هو فإن ما جرى لها لإرغامها على الدخول في الإسلام ليس له أي يد فيه، وإنما هو من أقاربه وزعماء المدينة ses parents et les Puissances du pays. وأنه سيعمل من أجل أن يؤثر عليهم ويجعلهم يتخلون عن موقفهم تجاهها، ويتركونها تمارس دينها بحرية. وطلب منها أن تصبر بعض الوقت حتى تتغير الظروف قليلا ويتوجهان إلى إستانبول للعيش بها. وبالفعل فإن الزوجة الهولندية ما فتئت أن تُركت وحالها، وصارت تعيش هادئة مطمئنة وفي وئام تام مع زوجها في منزل مستقل، وبقيت كذلك مدة تجاوزت السنة، رزقت خلال ذلك بولد آخر، قامت بتعميده خفية عن والده وعن أقاربه.

وبعد تلك المدة جاءت الظروف المناسبة للسفر، فاستقل "حكمت" وزوجته وولداه البحر في اتجاه الشرق قاصدين إستانبول.

وكان ذلك الموقف الذي ووجهت به الزوجة الهولندية من مجتمع مدينة الجزائر بسبب دينها النصراني، هو نفسه ووجهت به في أثناء رحلتها إلى إستانبول، حيث مرت بمصر وفلسطين ووصلت إلى لبنان. فلم يتقبل المسلمون هناك أيضا رؤية رابطة زواج بين مسلم ومسيحية، حتى أنهم امتعضوا لذلك امتعاضا شديدا، وكان كل الأشخاص الذين يتصل بهم "حكمت" يعبِّرون عن ذلك الشعور الذي ساورهم، ويطلبون منه أن يضغط عليها لكي تغير دينها إلى الإسلام. ولكن "حكمت" (الذي كان يتميز بالتسامح والوفاء بالعهد، ويعتقد بأن الإيمان ليس منبعه اللسان وإنما القلب، وهو لا يأتي بالضغط والزجر والتهديد وإنما بالقدوة الحسنة والإقناع بالحجة والبرهان) كان يَرُدُّ عليهم بأنه يُحبُّ زوجته الهولندية كثيرا ولا يريد أن يسبب لها أي أذى، وأن المعاملة الحسنة وطول الزمن هما فقط الكفيلان بتحقيق ذلك الأمل. ولذلك فإنه لم يكن يتردَّد في التجوُّل برُفقتها في المدن التي مرَّا بها في مصر وفلسطين، والدخول معها إلى الكنائس التي أرادت زيارتها هناك كما كان الحال في القدس وبيت لحم والناصرة بفلسطين.

وكان المظهر الديني الثالث الذي ميز قصة "حكمت" يتعلق بموقف المسيحيين الشرقيين وهم الموارنة في لبنان، من "حكمت"، وذلك ليس باعتباره مسلما عاديا كسائر المسلمين، وإنما باعتباره مسلما (أو كما وصفه صاحب المذكرات : تركيا من الجزائر) خدع امرأة

مسيحية وتزوجها un turc d'Alger avait trompé et épousé une Flamande Chrétienne. ولكن تلك العلاقة ليس فقط أنها لم ترُق للمسيحيين الموارنة كما حدث للمسلمين من جهة المرأة المسيحية التي تزوجت مسلما، وإنما اعتبروا ذلك إهانة لديانتهم المسيحية، خصوصا لما رأوا "حكمت" يتجول مع زوجته الهولندية في الشوارع ويدخل معها الكنائس. ولذلك فإن خبر الزوجين انتشر في كامل أنحاء البلاد التي أطلق عليها صاحب المذكرات اسم "سوريا dans toute la Syrie" (ص 477). وفي تلك الأثناء ظهر رجل ماروني متعصب كثيرا وشرع يتنقل من منزل إلى آخر في مدينة صيدا (بلبنان) ويحرِّض المسيحيين ضد "حكمت" ويدعو إلى معاقبته بدعوى أنه تعدى على الديانة المسيحية، وأهان شعائرها المقدسة، Il leur représenta que ce fourbe avait abusé une infinité de fois de nos sacrément, et qu'il était juste de l'en punir, et que ce serait une action digne des chrétiens à qu'il parlait. وكان ذلك الماروني يقصد بمعاقبة "حكمت" ليس ضربه أو سجنه، وإنما قتله. وذلك ما قام به بالفعل بعد أن دبَّر له مكيدة اشترك فيها زعيم المارونيين المدعو الشيخ قاسم. وتمت عملية الاغتيال تلك ليلا لما كان حكمت يخص في نوم عميق على متن السفينة التي كانت ستقله إلى مدينة طرابلس كما سبق الإشارة في العنصر الثاني من هذا العمل. وهنا يتبين لنا بشكل واضح أن المخاطر التي كانت تحيط بـ"حكمت" أثناء هجرته بأسبانيا كانت مخاطر حقيقية وليست وهمية. ومبعث تلك الأخطار هو التعصب الديني والعداوة للمسلمين اللذان كان يتميز

بهما ليس المسيحون الغربيون فقط وإنما معهم إخوانهم الشرقيون أيضا.

وأتمنى في آخر هذا العمل أنني عرفت بقصة "حكمت"، وعالجت أهم الإشكالات المرتبطة بها، ولكن معرفة تلك القصة بشكل أوسع والإجابة عن إشكالاتها بشكل أعمق يحتاجان من غير شك إلى مصادر أخرى تكون قد أرخت للأحداث التي شكلت بنيتها. وإذا ما اكتشفت تلك المصادر فإننا نجد أنفسنا أمام حدث بارز من أحداث الجزائر في العهد العثماني، وليس ذلك على المستوى المحلي فقط، وإنما على المستوى الخارجي أيضا، واقصد بذلك أوروبا والدولة العثمانية.

# السيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي

أ. فوزية كرراز
قسم التاريخ/جامعة معسكر/الجزائر.

لسنا بحاجة إلى التطرق للأسباب السياسية في الحديث عن التغريبة الهلالية بالمغرب الإسلامي، باعتبار أن الأمر قد فصل فيه وحيثياته واضحة، لكننا بأمّس الحاجة لتوضيح الأسباب والأوضاع الاقتصادية والوقوف عندها مليا، لأنها في نهاية المطاف ستحدد لنا مسار هؤلاء بالمنطقة، وتفسر أسلوب العنف والخراب المنتهج من قبلهم، وكذا اختيار مواضع للاستقرار دون أخرى ومن جهة أخرى لأن العوامل الاقتصادية كانت منذ الأزل وما زالت على رأس الأسباب في الصراع بين البشر وبين الحضارات.

هذا ولا يمكن التعرض للسيطرة الاقتصادية الهلالية بالمغرب الإسلامي بمعزل عن الوضع الاقتصادي في مصر وفي المغرب الإسلامي عشية التدفق الهلالي. وكذا بمعزل عن الصراع السياسي

المستمر به والذي صنعته ثلاثة أقطاب رئيسية وهي السلطة الزيرية والحمادية والقبائل الزناتية. وإن كانت أبعاد الصراع اقتصادية بالدرجة الأولى تمثّلت في رغبة الزيريين في السيطرة على إيرادات التجارة الصحراوية ومراقبتها، فيما حرص الزناتيون على الحفاظ على امتيازاتهم القديمة في هذه التجارة التي كان لهم فيها باع طويل منذ القرن 2هـ/8م، والذي كان سابقا جوهر النزاع بين الزناتيين والفاطميين.[1]

ويجدر بنا التنويه إلى أن المداخلة اقتصرت على قرن من الزمن بدء بدخول الهلاليين المغرب ؛ ذلك أن هذه الفترة حساسة أكثر في الحياة الاقتصادية، ففي خضم التحوّلات في المسالك التجارية استطاعت القبائل الهلالية إيجاد لنفسها أمكنة جغرافية ذات أبعاد اقتصادية، وهي الدخيلة على المنطقة وليس ثمة إشكال بعد هذه الفترة ؛ بحيث حققت الذات واندمجت في السلطة والمجتمع المغربيين برضا جميع الأطراف. ومن تم لا إشكال في المكاسب الاقتصادية التي حققتها.

## الوضع الاقتصادي بمصر في القرن الخامس هجري :

عن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة بمصر يتحدث المقريزي في كتاب له ألّفه سنة 808 هـ/1405 م عنوانه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » عن تاريخ عام للمجاعات التي عرفتها مصر منذ آدم عليه السلام إلى بداية القرن التاسع الهجري يحلل فيه أسباب تلك المجاعات، ثمّ اقترح

1. المدينة والبادية في العهد الحفصي : محمد حسن- نشر جامعة تونس الأولى- 1999 -ج1، ص. 35.

الحلول التي رآها مناسبة لتداركها.[1] من بينها مجاعات نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري/ق10-11م. وكانت أشدّها الواقعة سنة 444هـ/1052م، ومن نتائجها الخطيرة تراجع في عدد السكان من جراء كثرة الموتي وإقفار الأرياف وتعطيل الأنشطة الاقتصادية، وعرفت مجاعات 444-447-457هـ/1052-1055-1065م بالشدة الكبرى.[2] ولم تكن القبائل الهلالية القاطنة بصعيد مصر بمعزل عن هذه الأزمات ؛ حيث كانت تعيش ظروف متدهورة بحسب ما ذكره المقريزي في كتابه « البيان والإعراب عمن نزل مصر من الأعراب ».[3] وعليه أسهمت هذه المجاعات في ترحيل القبائل الهلالية إلى بلاد المغرب التي لم تكن في سنة أو سنتين بل دامت عدّة أجيال.[4] لأنه من غير المستبعد أن يكون الخليفة المستنصر شجع عملية انتقال بني هلال وبني سليم إلى افريقية لتخفيف الشدائد على سكان تلك المنطقة[5]، متذرعا بالقطيعة السياسية التي أعلنتها الدولة الزيرية اتجاه الخلافة.

وما يعزر هذا الاحتمال بل ويؤكده هذا النص : « فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء سنة إحدى وأربعين وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعير ودينار لكل وحد منهم وأباح لهم إجازة

1. « العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقيا » : راضي دغفوس- مجلة أوراق- المعهد الإسباني العربي للثقافة- ع4، 1981، ص.148.
2. المرجع السابق، ص.153.
3. نفسه، 153.
4. النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها من الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي : عبد المجيد مزيان - الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- 1981، ص. 380.
5. راضي دغفوس، المرجع السابق، ص.153.

النيل وقال لهم أعطيتكم المغرب ملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون »[1]. فعبارة لا تفتقرون دلالة واضحة على تدهور الوضع الاقتصادي لهذه القبائل وهي في الصعيد.ويثبت نص آخر هذه الوضعية المزرية مفاده : « ...ثم إنهم لما وصلوا إلى بلاد إفريقية، واستطابوها كتبوا إلى إخوانهم في اللحاق بهم، فلم يتركهم الجرجرائى أو يؤدي كل عابر فروا ودينار فأخذ بذلك أكثر مما أعطى »[2].

## التغريبة الهلالية بالمغرب الإسلامي :

كان رحيل القبائل الهلالية إلى المغرب الإسلامي ناجما عن سياسة الإقطاعات السلطانية التي صارت من العادات السياسية الجاري العمل بها في عهد الانحطاط للدول وذلك بتسليط الحكام بعض القبائل ذات العصبية الموالية للحكم على أراضي ليست لهم ليفتكوها من يد القبائل المعادية له، أو يتسلطون عليها كجباة فارضين مقاييس خراجهم كما يشاؤون[3]. وهذا ما قام به الفاطميين بحيث اقتطعوا أرض المغرب للقبائل الهلالية. يستخلص هذا الإقطاع في النصين التاليين : « أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي»،[4] « وملكوهم كل ما يفتحونه ».[5] وما لبث الهلاليون حتى أوهموا أن بلاد

1. العبر : ابن خلدون- بيروت- دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع- ط-1 ج2، ص.2324 .
2. رحلة التجاني : التجاني- تقديم: حسن حسني عبد الوهاب- الدار العربية للكتاب، 2005، ص. 55.
3. النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون: عبد المجيد مزيان، ص 156.
4. العبر: ابن خلدون، ج2، ص2324.
5. الكامل في التاريخ :ابن الأثير- بيروت- دار الكتاب العربي- ط6، 1406-1986، ج5، ص55.

المغرب كلها أرضهم أقطعت إياهم بأمر من الخليفة الفاطمي[1]، وكانت سنة 442هـ/1050م سنة الفصل في إقرار الوجود الهلالي رسميا ببلاد المغرب أول ما نزلوا برقة[2]، وبقوا فيها مدة لم تحددها المصادر التاريخية.

ومع ذلك وردت إشارة في إحدى الدراسات على أن الوجود الهلالي بالمغرب سبق هذا التاريخ ؛ بحيث كانت القبائل الهلالية والسليمية تنتجع بالواحات الغربية في خط التماس بين بلاد المغرب ومصر منذ أواسط القرن 4هـ/10م. كان : « بالواحات من بني هلال عدة غزيرة وأمة كثيرة، وهي مصيفهم وقت الغلة وميرتهم منها »[3].

ويرجع تاريخ تواجد زغبة بجهة طرابلس إلى سنة 429هـ/1030م، جاء ذكرها في الحديث عن نزاع زناتة وزغبة التي تمكنت من قتل أحد زعماءها سعيد بن خزرون[4]. ومما لا شك فيه أنّ الجوع دفع بهؤلاء للهجرة نحو بلاد المغرب قبل العقد الخامس من القرن الخامس الهجري. وإذا ما سلّمنا بهذا النص التاريخي فأنّه لم يكن للسلطة الفاطمية الدور الكبير في تحريض هذه القبائل للرحيل إلى بلاد المغرب، كما لم يكن الحدث السياسي سببا في هذه الهجرة.

1. النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون : عبد المجيد مزيان، ص. 380.
2. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذاري المراكشي- تح ومراجعة : ج س كولان، ا. ل. بروفنسال- بيروت- دار الثقافة - ج 1، 1983 م، ص. 288.
3. المدينة والبادية : محمد حسن، ص. 29.
4. رحلة التجاني : التجاني، ص. 227.

## الهلاليون ومسالك التجارة المغربية :

يبدو أنّ تحرّكات بني هلال ارتبطت بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي التي كانت تتحكم فيها القبائل الإباضية من الزناتة ومزاتة.[1] وإلى غاية نهاية القرن الرابع و بداية الخامس الهجريين ظلت الطرق التجارية الصحراوية بشرق المغرب الإسلامي محور الصراع. فكانت مدينة زويلة على امتداد العصر الوسيط أحد المراكز الأساسية لتجارة الرقيق [2] نظرا لوقوعها في نهاية طريق تشاد كوار فزان، وفي مفترق الطرق المتجهة إلى مصر من جهة وإفريقية من جهة ثانية، وهي الطريق التي عرفت استيراد الخصيان من كانم بورنو في أواسط افريقيا [3].

ويؤكد من جهته اليعقوبي على أهميتها التجارية كمنطلق نحو الجنوب وبهذه الخاصية تشابهت مع وارجلان وسجلماسة، فذكر أنّ أهلها يخرجون الرقيق السوداني من الميريين والزغاويين والمرويين وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم [4]. وما وراء زويلة مدينة كوّار تبعد عنها بخمسة عشر مرحلة، أهلها مسلمون يتاجرون هم كذلك بعبيد السودان.[5]

---

1. المدينة والبادية : محمد حسن، ص. 31.
2. معجم البلدان : ياقوت الحموي- دار بيروت للطباعة والنشر1408-1988 ج3، ص160./ المسالك والممالك : البكري- تح : جمال طلبة- بيروت- دار الكتب العلمية- ط1، 1424-2003، ج2،ص. 183.
3. الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة : عبد الإله بنمليح- وجدة- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- 2003، ص. 83.
4. كتاب البلدان : اليعقوبي- بيروت- دار أحياء التراث العربي- ط1، 1408-1988، ص. 102.
5. نفسه، ن ص

وإن كانت هذه الطرق التجارية الرابطة واحات أقصى شرق المغرب الإسلامي ببلاد السودان ومصر فقدت فعاليتها إلى حدّ ما نتيجة الصراع السابق الذكر فإنّها لم تفقدها كلية، بالرغم من التدفق الهلالي على المنطقة بدليل أن هذه الأخيرة حاولت استغلال ما تبقى منها نشيطا قدر المستطاع والاستفادة منها. فقد شاركوا سكان مدينة أوجلة وهي من إقليم برقة تجارتهم برضاهم، وإن كانت تجارة الكفاف. ويشير إلى ذلك الإدريسي : « مدينة أوجلة مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة، وذلك على قدر احتياجهم واحتياج العرب. وهي من الناحية البرية يطيف بها نخل وغلات لأهلها ومنها يدخل إلى كثير من أرض السودان نحو بلاد كوّار وبلاد كوكو وهي في رصيف طريق الوارد عليها والصادر كثير وأرض أوجلة و برقة أرض واحدة »[1].

ويستنتج من نص الإدريسي – وهو الذي تتبع توزيع القبائل الهلالية بالمغرب الإسلامي مند قدومهم إليه، فكان أكثر المصادر الذي أوضح المناطق التي تعرّضت لخرابهم و فسادهم. وبيّن المناطق التي تهادنوا مع سكانها فدخلوا معهم في معاملات تجارية. ومن تمّ كان الاعتماد عليه بشكل كبير أكثر من غيره – أن القبائل الهلالية استقرت بإقليم برقة وهي أولى محطاتها باعتبارها أوّل منبر ينزله القادم من بلاد مصر[2] مدة لا يستهان بها وكورها عامرة بهم[3]. كما لا يشير النص

1. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : الإدريسي– القاهرة– مكتبة الثقافة الدينية– 1414– 1994، مج 1، ص312
2. المصدر نفسه، ص. 310.
3. نزهة المشتاق : الإدريسي، ن ص.

إلى أدنى تخريب ونهب بها من قبلهم ؛ لأنّه يؤكد على أن الصادر عنها والوارد إليها كثير في صيغة الحاضر لا الماضي. ثم يضيف: « وهي الآن يتجهز منها المراكب والمسافرون الواصلون إليها من الإسكندرية وأرض مصر بالصوف والعسل والزيت »[1]. وهي شهادة كافية على استمرارية التجارة الداخلية والخارجية بها. ذلك لأن سكانها دون شك لم يعارضوا مبدئيا أو ظاهريا على الأقل وجود هؤلاء الدخلاء وإلا لما استمر النشاط الاقتصادي بهذه المدينة، بدليل أنّ مدينة لبدة من نفس الإقليم تغلّبت العرب عليها وأجلت سكانها منها، ونتيجة هذا الاصطدام تغيّر وجه المدينة من عمارة وزراعة.[2] وغير بعيد عنها كانت سويقة ابن مثكود تحت طاعة العرب وبها أسواق رائجة، وأهلها يحرثون الشعير على السقي والعرب يخزنون بها طعامهم[3].

فالاعتماد على الإدريسي الذي لم يكن بعيدا زمنيا عن مستجدات القرن الخامس الهجري/ق11م وإن صحّ القول معاصرا لها تعتبر شهادته حية موثوق بها. فحديثه عن سويقة ابن مثكود يتضمن عدة معطيات تاريخية وهي رضوخ سكانها وهم من بربر هوارة للسيطرة الهلالية الأمر الذي جنبهم الدخول معهم في حروب مما انعكس إيجابا على الحياة الاقتصادية كالاستمرارية للحرث والزرع. وثمة إشارة مهمة أخرى والمتمثلة في نظام السقي الذي ظلّ مستمرا ومعتمدا في الزراعة دلالة على عدم تخريبه، خاصة وأنّ موضوع الماء في الواحات يعتبر من الأعمال الشاقة نتيجة الجهد الكبير المتطلب

1. نفسه، ص. 311.
2. نفسه، ص. 308.
3. نفسه، ص. 309.

في استخراجه، فضلا عن بناء السواقي وتهيئة المقاسم والمصارف ومراقبة التوزيع لذا يحتاج إلى يد عاملة هامة [1]. وكل هذا لم يتأثر بالوجود الهلالي. وثمة إشارة صريحة في النص أكثرهم أهمية على الإطلاق والمتمثلة في تخزين الطعام ؛ وكان التخزين عادة في المطامير الجماعية في هندسة مميزة تختلف من مكان لآخر، فقد كانت أحيانا في شكل القصور الجنوبية أي المكونة من غرف متناضدة ومتراكبة حولها سور دائر ذو منفذ واحد، ويبني الطمار في وسطه أوعند مدخله غرفة للمراقبة. ويعمد بعض أهل البادية إلى خزن الحبوب تحت الأرض بطريقة جماعية حتى يعسر أحيانا التفرقة بين مطمور وآخر ويجعلون عليه زرب مثل السور [2]. و في اعتقادنا الطريقة الثانية هي التي اعتمدت عند القبائل الهلالية. وكان للتخزين بعدا تاريخيا آخر تمثل في الاستقرار و بداية إيجاد الذات لهؤلاء في بلاد المغرب.

وعموما الرغبة في الخروج من إقليم برقة والسير قدوما نحو افريقية لم تراودهم على الإطلاق. فالتقدم وإن كان فلم يتجاوز طرابلس، وهذا نظرا لأن مدينة أوجلة لوحدها تحوي على الكثير من العشب [3] وهم بذلك وجدوا المرعى، فضلا على أنّها طريق تجارى نشيط ومربح. بدليل أن الإدريسي قام بقياس المسافة ما بين برقة وأوجلة بسير القوافل وفي هذا الصدد قال : « من برقة إلى مدينة أوجلة في البرية عشر مراحل بسير القوافل ».[4]

1. المدينة والبادية في العهد الحفصي : مسحمد حسن، ص. 401-402.
2. نفسه، ص 452.
3. – نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1 ، ص. 298.
4. نفسه، ن ص.

هذا ولم تكن طرابلس أقل شأنا من الناحية التجارية عن إقليم برقة ؛ بحيث كانت بها من الصناعة والأمتعة ما يتجهز بها إلى كثير من الجهات فضلا على أنّ لها مزارع شاسعة سمحت لتنتج الكثير من المنتوجات الهامة على قيمة كبيرة في التغذية كالزيتون والتين والنخل[1]. إلاّ أنّ كل هذا خرب على يد الهلاليين وأقفروا بواديها.[2] لكن في اعتقادنا ما هو إلا خراب جزئي ومؤقت أو بصيغة أخرى خراب ناتج عن حرب، فسرعان ما تستعيد المنطقة عافيتها وحيويتها ونشاطها بدليل أنّ زغبة رضيت بها في قسمتها عندما اقتسم العرب بلاد افريقية سنة 446هـ[3].

إذن إلى غاية موقعة حيدران 443هـ/1052م التي هي إيذان بتدفق البدو العرب وسط البلاد وشمالها وبانتشار نمط العيش الرحلي[4] بها ظلّت القبائل الهلالية ظاعنة في بلاد برقة وجهة طرابلس مستفيدة من خيراتها وتجارتها. أما عن النهب والفساد الذي ستعرفه العديد من مناطق افريقية وشرق المغرب الأوسط ما هو إلا نتيجة اصطدام هؤلاء بسكان تلك المنطقة. ولم تكن الرغبة في الفساد لأجل الفساد عند هؤلاء، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن هذه القبائل لم تكن كلها بدوية، بل منهم فقراء المدن ومطردو الطبقات والشاردون من حكم الأمراء، والتحم الجميع تحت عصبية واحدة وكونت قبيلة لم يشهد لها التاريخ ضخامة

1. نفسه، ص. 297.
2. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 297.
3. العبر : ابن خلدون، ج2، ص. 2325.
4. المدينة والبادية : محمد حسن، ص. 35.

وفوضى [1]. إذن وضعيتهم تلك لا تسمح لهم بتخريب ما وقع بين أيديهم من مزارع ومدن وقطع الطرق التجارية، وهم الذين طالما لجئوا للأقطار يلتمسون الاسترزاق والاستقرار.

وبناء على ما تقدم يبدوا واضحا أنه لم يكن للقبائل الهلالية اليد الطولى في قطع طريقين هامين من طرق القوافل الواصلة عبر الصحراء بين الغرب وبين السودان والنيجر وهي الطرق التي يمر أحدها بواحة أوجلة والثاني بواحة غدامس مثلما نوّهت إليه إحدى الدراسات [2]. أي صحيح عرف الطريق الرابط بين تادمكة وغدامس وجبل نفوسة وطرابلس تراجع في المبادلات التجارية [3]، لكن كان هذا نتيجة للتفكك السياسي الحاصل بالمغرب الإسلامي بداية من القرن الخامس الهجري والمتزامن مع حلول الهلالين بالمنطقة، والمتمثل في نزوح القبائل الزناتية إلى المغرب الأقصى بعد استيلاء صنهاجة على مواطنهم بشرق المغرب الإسلامي، وهو الأمر الذي أضعف الحركة التجارية هناك بالمقابل نشطت بالمغرب الأقصى حيث استطاعوا تأسيس إمارات بأهّم المدن التجارية هنالك [4]. إضافة إلى الانقسام الذي شهدته فيما بعد السلطة الصنهاجية الشرقية وظهور إمارتين متنافستين والمتمثلتين في الدولة الزيرية والحمادية ودخولها في

1. النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون : عبد المجيد مزيان، ص. 380.
2. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط : أرشيبالد .ر.لويس- ترجمة : أحمد محمد عيسى - مراجعة وتقديم : محمد شفيق غربال، القاهرة، نيويورك، مؤسسة فرامكلين للطباعة والنشر، بلا ت، ص. 385.
3. الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة : عبد الإله بنمليح، ص. 84.
4. الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني : عبد الحميد حاجيات وآخرون - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1984، ص. 291.

صراع مع بقايا القبائل الزناتية، وظهور قوة جديدة في غرب المغرب الإسلامي ألا وهي الدولة المرابطية. أدّت هذه التطورات إلى تأسيس محور تجاري يربط بين غانة وقرطبة مرورا بأودغشت وسجلماسة ومراكش وفاس. كان ذلك على حساب المسلك الأفقي الذي أصابه التجزؤ الرابط بين حواضر المغرب : برقة وطرابلس والقيروان والمسيلة وتيهرت وتلمسان وفاس فقرطبة [1]، وبالتالي الوجود الهلالي لم يكن سوى حلقة من حلقات التي أسست للتطور التجاري السلبي.

وكانت كل من موقعة حيدران سنة 443هـ/1052م، وبعدها موقعة سبيبة سنة 457هـ/1065م-بغض النظر عن أسبابهما- من الفرص التي سمحت لهم بالتوغل في أراضي المغرب الإسلامي، فكانت الأولى سببا في توغلهم بإفريقية، وكانت الثانية فرصة في انتشارهم بشرق المغرب الأوسط. إذن ما هي نتائج المترتبة عن هذا التوغل ؟ ثم على أي أساس اختارت القبائل الهلالية مناطق للاستقرار دون أخرى ؟

تعتبر هذه المرحلة حاسمة في تاريخ الطرفين لما أحدثته من تحولات وتغيرات جدرية بالمنطقة من حيث إعادة صياغة العناصر البشرية المكونة للمجتمع المغربي، والعمل على توزيعه جغرافيا من حين لآخر، كما أسست لنمط اقتصادي جديد ساد أغلب مدن وحواضر المغرب نتيجة الاستقرار الهلالي، وعلى الصعيد السياسي زادت في ضعف السلطتين.

وفي حقيقة الأمر ما كان دخولهم يفرز مثل هذه النتائج الخطيرة وعلى كافة الأصعدة لولا الأوضاع المتردية التي كانت عليها السلطة

1. المدينة والبادية : محمد حسن، ص. 36.

الزيرية بافريقية عشية الدخول الهلالي، إذ كانت على وهن وتفكك ما يغنيهم عن بذل مجهود كبير في السيطرة على أراضيها نجملها في :

- النزاعات الداخلية بإفريقية بين السنة والشيعة.

- الصراع المتواصل بين السلطتين الزيرية والحمادية من جهة والقبائل الزناتية من جهة أخرى، مما أضعف السلطة الزيرية في المقام الأول، الأمر الذي جعل المعز يطلب محالفة قبيلة رياح وإقحامها في جنده [1].

- خروج المقاطعات الطرفية عن السلطة المركزية مثل جهة طرابلس والحضنة والجريد.

ومن الممكن أن هذه الأحداث كلها هي التي عبّر عنها النويري أثناء وصفه لحال بلاد المغرب الذي وجدته عليه القبائل الهلالية قائلا : « ...ودخلت العرب، فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المرعا. كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز... » [2].

والحصيلة كان اكتساحهم لبلاد المغرب من ثلاث جهات متوازية وهي :

1- الطريق الصحراوي : دخلوه من الواحات السابقة الذكر بدء ببرقة إلى غاية قفصة جنوب إفريقية، وبالضبط بمدينة بيلقان التي عرفت فسادا على أيديهم، ثم استولوا على منافعها وجميع أراضيها، كما سيطروا على ثروتها المائية [3]. ومع ذلك لم يؤثر استيلائهم سلبا على الطريق التجاري الهام الرابط بين قفصة ووارجلان رغم توسطهم له ؛ بحيث حافظت وارجلان على دورها الريادي التجاري

1. البيان المغرب : ابن عذاري المراكشي، ج1، 288.
2. نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري – تحقيق : مصطفى أبو ضيف – الدار البيضاء – دار النشر المغربية – 1984، ص. 343./ الكامل في التاريخ : ابن الأثير، ج 9، ص. 567.
3. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 278.

رغم الوجود الهلالي بالمنطقة. وظلت كذلك طيلة العصر الوسيط، فكانت المزود الرئيسي لأهل إفريقية والمغرب الأوسط بحاجتهم من الرقيق، ويشيد بهذا ابن سعيد قائلا : « هي بلاد نخل وعبيد، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير ».[1] ولا يمكننا أن نتصور مرور القوافل التجارية بهذا الطريق دون أداء خفارة للقبائل المسيطرة عليه.

ثم زاد توغلهم أفقيا من جنوب إفريقية متقدمين إلى جنوب الأوراس بإقليم الزاب، ووصلوا لاحقا إلى بلاد مزاب وجبل راشد بالمغرب الأوسط[2]. فتمكنت من الاستقرار في جزء كبير من إقليم الزاب، فارضة سيطرتها بالقوة على سكانه، من ذلك سيطرتهم على حصن باديس، فملكت أرضه، ومنعوا أهله من الخروج إلا بخفارة.[3] خاصة وأن المدينة بها من المؤهلات الاقتصادية ما يشجع على البقاء، فهي ذات أرباض واسعة وبسائط كثيرة، ومزارع يزرع فيها الشعير مرتين في السنة بالاعتماد على السقي، وفيها كثير من النخل وأصناف الفواكه.[4] كما استقروا بحصن بشر من أعمال بسكرة،[5] وتمكنوا من البقاء في بوادي إقليم طبنة.[6]

1. كتاب الجغرافيا: ابن سعيد- تحقيق : إسماعيل العربي - الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية -ط2، 1982، ص. 126.
2. العبر : ابن خلدون، ج2،ص. 2328.
3. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 264.
4. الاستبصار في عجائب الأمصار : مجهول- نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد- الدار البيضاء - دار النشر المغربية، 1985، ص. 175.
5. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 264.
6. المصدر نفسه، ص. 264.

ويبدو واضحا أن إقليم الزاب بشكل عام لم يتغيروجهه بالوجود الهلالي ؛ ذلك أن المصادر الجغرافية أشادت بخيرات المنطقة. فصاحب الاستبصار تحدث عن كثرة بساتين النخل وتنوع الثمار، وكذا الأرباض الواسعة في كل من طبنة وبسكرة، ونوّه للأنهار التي تشقهما، والمستغلة في سقي تلك البساتين.[1] وأشار عموما إلى الثروة المائية التي يحويها إقليم الزاب.[2] ولهذا دلالة واضحة هي أن العرب الهلالية إما حوّلوا جزء من الأراضي الزراعية إلى مراعي واستبقوا آخر، وإما أنهم شاركوا سكان البوادي مراعيهم ونشاطهم الزراعي.

2- كان الثاني امتداد لهم في جهات الهضاب ما بين الأطلسين التلي والصحراوي، وبداية وجهتهم إلى الشمال سواء بالمناطق الداخلية أو الساحلية التي كانت على إثر اقتسامهم لبلاد إفريقية « فكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها »[3]، ويستنتج من هذه القسمة أن انتشارهم خضع لخطة مسبقة تحولت بموجبها البلاد إلى إقطاعات لهم.[4] كان هذا بعد موقعة حيدران وخراب القيروان، أما قبلها فقد استولوا على المجال الممتد مابين طرابلس و قابس، فكان إقليم طرابلس لقبيلتي عوف ودياب، وقابس لمرداس ورياح إلا أنهم أضروا بشكل كبير بالمنطقة وأجلوا عنها قبائلها.[5] ولا يخفى علينا ما لمدينة قابس من أهمية تجارية مميزة،

1. الاستبصار : مجهول، ص. 172-173.
2. نفسه، ص. 171.
3. العبر : ابن خلدون، ص. 2325.
4. المدينة والبادية:محمد حسن ، ص. 30.
5. نزهة المشتاق : الإدريسي، مجـ1، ص. 297-298.

لأنها حظيت ببعدين البحري والصحراوي، باعتبارها بوابة لطريق المشرق ومسالك الصحراء، وقد شهدت فترات التعمير إلى غاية القرن السادس الهجري/ ق12م ؛ ففي سنة 500هـ/1106م أكمل الأمير رافع بن مكي بن كامل من بني جامع الهلالين بناء فصر العروسين الذي شرع في بنائه الصنهاجيين،[1] مما يدل على أن الخراب في أغلبه لم يمس المدن بل شمل بواديها.

وبعد هزيمتهم للمعز واكتساحهم للقيروان، أصبحوا جباة على ما تبقى من النشاطات الاقتصادية بها. [2] فازدادت قبضتهم على افريقية فدخلوا مرماجنة عن طريق الأربس واستولوا عليها، وفرضوا ضريبة على سكانها، كما قاسموا أهلها القمح والشعير ما يكفيهم وزيادة.[3] ومنها استولوا على مجانة واتخذوا بها مخازن لتخزين غلاتهم [4].

هذا وكانت موقعة سبيبة 457هـ/1065م سببا في إقرار الهلاليين في أراضي المغرب الأوسط، وبعبارة أخرى في إقليم الدولة الحمادية، ذلك لما خرج الأمير الناصر بن علناس لامتلاك تونس في حملة تحالف فيها مع الأثيج إلاّ أنّهم خانوه وتحالفوا مع أخوانهم رياح وزغبة وزناتة من البربر الذين طالما ناصبوا العداء لصنهاجة. ولم يتوان تميم بن المعز من جهته عن الخروج بجنده لردّ هذه الحملة، وكان اللقاء بفحص سبيبة غربي القيروان فانهزم الناصر وولى راجعا إلى

1. رحلة التجاني : التجاني، ص. 109.
2. نزهة المشتاق : الإدريسي،مج1، ص. 284.
3. نفسه، ص. 292.
4. نفسه، ص. 293.

قسنطينة ورياح في أتباعه ومنها إلى القلعة [1]، وعلى إثرها حازت سهول قسنطينة فدخلوا مع أهلها في معاملات تجارية وشاركوهم يسرهم، كما شاركوهم الحرث والادخار [2]، خاصة وأنّها سهول خصبة، ولها مناخ قاري ملائم يساعد على تخزين الحبوب في المطامير لمدة طويلة تفوق السنة ولا تفسد [3]. وبذلك فإنّها تساعد على الاستقرار، بل تمادوا في السهول الممتدة من قسنطينة إلى ميلة إلى مرسى الخرز وامتلكوها حتى أصبحوا يزودون سكان المدن بالحبوب، من ذلك تمويل أهل مرسى الخرز بالحبوب بسبب قلة زراعتها [4]. ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل واصلوا سيرهم في أعقاب الناصر إلى غاية القلعة. إلاّ أن هذا الأخير صالحهم بإقطاع بواديها لهم مقابل ترك المدينة بسلام، بدليل أنها أصبحت بعد خراب القيروان « مقصد التجار وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائربلاد المغرب » [5] وهو ما يعرف بإقطاع التأليف والتسكين، وهو وسيلة ناجعة لتحكم الأمير في هذه القبائل واحتوائها.[6] وهي بداية رسمية ومقننة لاندماجها واستقرارها، وحولت تدريبجيا من مجموعات بدوية مترحلة غازية قاطعة للطرق إلى الاستقرار والاشتغال بالزراعة.

3- الامتداد في الشريط الساحلي : بدأ بطرابلس فقابس وقد تقدم الحديث عنهما، ثم تونس فاستولوا على فحوصها وهي مزارع واسعة

1. العبر : ابن خلدون، ص 2328
2. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 265.
3. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص265.
4. نفسه، ص. 265-291.
5. المسالك والممالك : البكري، ج2، ص. 226.
6. المدينة والبادية : محمد حسن، ص. 329.

للحنطة والشعير. ويؤكد الإدريسي على استمرار رخائها قائلا : « وهي الآن في حين تأليفنا هذا الكتاب معمورة موفورة الخيرات يلجأ إليها القريب والبعيد والعرب تجاور أرضها وتأتي بأنواع الحبوب... »[1] ومنها إلى باجة فملكوا خراجها، كما تملّكوا بادية مرسى الخرز[2]، كما ملكوا بونة صلحا[3].

وللإشارة فإنّ المناطق الشمالية الشرقية للمغرب الأوسط أغلب سكانها من قبائل كتامة، ومع ذلك لم تتحدث المصادر عن أية معارضة كتامية وهذا لسببين إما لمكاتبة الدولة الفاطمية لهؤلاء بعدم التعرض للعرب، وإما التقرب منهم من تلقاء أنفسهم نكاية في صنهاجة[4].

كما يجب التنويه إلى أنّ اكتساح القبائل الهلالية الواسع لبلاد المغرب جعلهم يقتسمون البلاد للمرة الثانية بعد القسمة الأولى التي كانت سنة 446 هـ -سبق الإشارة إليها- « فكان لهلال من تونس إلى الغرب وهم : رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثيج والخلط وسفيان فيما نزلت سليم بجهة الشرق »[5].

كما أنّ في هذه الحقبة التاريخية عرفت القبائل الهلالية تحالفات متعددة بحثا عن المصلحة المادية، فأفرزت كتلتين متنافستين تكونت

1. نزهة المشتاق : الإدريسي، مج1، ص. 285.
2. نفسه، ص. 290.
3. العبر : ابن خلدون، ج2، ص. 2325.
4. تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك محمد الميلي- بيروت -دار الغرب الإسلامي -بلا ، ج2، ص. 186.
5. العبر : ابن خلدون، ج2، ص. 2325.

الأولى من رياح وزغبة محالفة للسلطة الزيرية بالمهدية، وضمّت الثانية قبيلة الأثيج وعدي والسلطة الحمادية.

وحصاد ما تقدّم يمكن تلخيص السلوك الهلالي بالمغرب الإسلامي ونتائجه خلال القرن الخامس كالتالي :

- تعرضت بعض مناطق افريقية وشرق المغرب الأوسط إلى تخريب من قبلهم وكان نتيجة حرب، فأعيد انتعاش بعضها من جديد واستقروا بها وتجاوزوا أخرى.

- المناطق التي اختاروها للاستقرار في معظمها إن لم نقل كلّها ذات مواقع إستراتيجية اقتصاديا ؛ كوقوعها على أهم المسالك التجارية نلخص هذه المسالك في : مسالك تجارة القوافل الصحراوية مع بلاد السودان وبلاد مصر والمتمثلة في واحات برقة وأوجله و وارجلان.

- وطرق أخرى رابطة بين أهم مدن المغرب الإسلامي كالمسلك المؤدي بين المسيلة إلى القيروان وإلى قفصة عن طريق مقرة وطبنة وبسكرة وتهوذة. وما كان يصل تيجس بالمسيلة عن طريق قسنطينة وميلة وسطيف والمسيلة بفاس عن طريق أشير وتنس وتاهرت وتلمسان، والطريق الرابط باغاية بطبنة عن طريق بلزمة ونقاوس ومجانة بعنابة عن طريق تيجس[1]. ومع أنّ القبائل البدوية الهلالية لم تمارس النشاط التجاري، لكنها ودون شك استفادت من هذه المسالك بفرض ضريبة المرور أو ما تعرف بضريبة العهد والأمان (خفارة).

1. الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني : عبد الحميد حاجيات وآخرون، ص. 180.

- اختاروا المناطق الخصبة للاستقرار وإن حولوا أجزاء منها إلي مراعي، فإنهم أبقوا أخرى على حالها، بل مارسوا النشاط الفلاحي حتى حققوا اكتفاء ذاتيا، وموّلوا المدن بالحبوب، واعتمدوا طريقة تخزين الغلة وهي دليل على كثرة الإنتاج، كما أنها دليل على نية الاستقرار النهائي عند هؤلاء. وحققوا هذه النتيجة إما بإجلاء أهل هذه الأراضي عنها بالقوة، أو مشاركتهم ومقاسمتهم أملاكهم وبالتالي اندمجوا في المجتمع المغربي مما أعطى المنطقة أبعادا حضارية أخرى.

- كذلك من النتائج، عرفت المنطقة بدء بموقعة حيدران إلى غاية التوسع الموحدي درجة من التأقطع والتشتت القبلي والتفكك السياسي والاجتماعي، وأثر سلبا في علاقة المدينة ببا ديتها إذ أحدث انفصال بينهما.

- لا الوجود الهلالي ولا أزمات القرن الخامس الهجري كانت لها أثر سلبي بشكل كبير على الحياة الاقتصادية بالمنطقة، بدليل أن الكتب الجغرافية وعلى رأسهم الإدريسي الذي تحدث عن استمرارية الثروات الاقتصادية في كثير من المناطق على الرغم من الوجود الهلالي بها. فتواصلت الزراعة والصناعة والتجارة على أن التواصل لايعني بأي حال من الأحوال الاستمرارية الكاملة للهياكل القديمة أو تباتها.

وبناء عليه يجب أن نقف مليا عند نصوص الإخباريين ويتقدمهم ابن خلدون الذي ضم مقدمته بابا أسماه : « في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب » قائلا فيه : « وافريقية والمغرب

لما جاز إليهما بنو هلال وسليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه كلها خرابا بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر »[1].

وفي حقيقة الأمر لا نرى في نص ابن خلدون إلا أحكاما مطلقة تحتاج إلى تدقيق وتمحيص، إذ أن الأضرار التي ألحقها العرب بإفريقية والمغرب الأوسط كانت متفاوتة فيما بينها، خاصة إذا علمنا أن أحكامه نابعة من اعتبارات ذاتية، ذلك أن بني هلال كانوا سببا في نكبته ونكبة صاحبه أمير بجاية[2]. وفي نصوصه وجدت الأستغرافيا الاستعمارية[3] الخيط الرفيع في تفسير مأساة المغرب الإسلامي. فرؤوا في الوجود العربي بالمغرب سواء عرب الفتح أو العرب الهلالية أكبر كارثة عرفتها المنطقة، من بينهم صاحب النظرة العدائية للعرب غوتيي.[4]

وحصاد ما تقدم فإن الاستقرار ومشاركة البربر في الحرث والتجارة وكذا فرض السيطرة على الطرق التجارية كلها عوامل أغنت القبائل الهلالية إلى حد ما عن النهب والسطو، وعليه فإن العامل في انحراف أخلاقهم وسلوكهم هو العامل الطبيعي

1. العبر : ابن خلدون، ج1، ص. 112.
2. فكر ابن خلدون، العصبية والدولة : محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 1992. ص150.
3. Histoire de L'Afrique du nord : Charle André Julien , Casablanca, 1950, p. 295.
   Histoire de L'Algérie : Marçais George et les autres, PARIS, 1962. p. 121.
4. Les siècles obscures du Maghreb : Gautier.E.F, PARIS, 1964, p. 31.

بمعناه الأوسع أو الشروط المادية لحياتهم وهم بذلك ليسوا أشرار بالطبع[1]، على عكس ما حاول غوتيي إثباته على أنهم أعداء بالفطرة. (ennemis nés) [2]

### فهرس المصادر والمراجع :

- الكامل في التاريخ : ابن الأثير- بيروت- دار الكتاب العربي- ط6، 1986-1406.
- العبر : ابن خلدون- بيروت- دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع - ط1، 1424-2003.
- كتاب الجغرافيا : ابن سعيد المغربي - تحقيق : إسماعيل العربي - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية- ط2، 1982.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذاري المراكشي-تحقيق ومراجعة : ج. س. كولان، ا. ليفي بروفنسال - بيروت - دار الثقافة - ط3، 1983، ج1.
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط : أرشيبالد. ر. لويس - ترجمة : أحمد محمد عيسى - مراجعة وتقديم : محمد شفيق غربال، القاهرة، نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بلا ت.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : الإدريسي - القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية ن 1414–1994.
- المسالك والممالك : البكري- تحقيق : جمال طلبة- بيروت- دار الكتب العلمية - ط1، 1424–2003.
- رحلة التجاني : التجاني - الدار العربية للكتاب، 2005.
- فكر ابن خلدون « العصبية والدولة » : الجابري محمد عابد - بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية - ط 5، 1992.

1. فكر ابن خلدون : محمد عابد الجابري، ص. 149.
2. Les siècles obscures du Maghreb : Gautier. E. F, p. 396.

- نهايةالأرب في فنون الأدب : النويري - تحقيق : مصطفى أبوضيف - الدار البيضاء دار النشر المغربية - 1984.
- كتاب البلدان : اليعقوبي - بيروت - دار التراث العربي - ط1، 1988-1408.
- « العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقيا » : راضي دغفوس - مجلة أوراق - المعهد الإسباني العربي للثقافة - ع 4، ص ص 147-163 .
- الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة : عبد الإله بنمليح - وجدة - مؤسسة النخلة للكتاب - 2003.
- الجزائر في التاريخ من الفتح إلى العهد العثماني : عبد الحميد حاجيات وآخرون - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1984.
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك محمد الميلي - بيروت - دار الغرب الإسلامي - بلا ت.
- الاستبصار في عجائب الأمصار : مجهول-نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد - الدار البيضاء - دار النشر المغربية 1985-.
- المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي : محمد حسن - جامعة تونس الأولى- 1999، ج1.
- معجم البلدان : ياقوت الحموي - دار بيروت للطباعة والنشر- 1988-1408.

- Histoire de L'Afrique du Nord : Charle Andre Julien - Casablanca - 1950.
- Histoire de L'Algérie : Marçais George et les autres - PARIS - 1962.
- Les siècles obscures du Maghreb : Gautier. E. F - PARIS - 1964.

# إشكالية القبيلة كمعلم سياسي في البعد البايلكي من خلال رؤية المـاريشال فالي

## 1841 – 1838

أ. سيساوي أحمد
مخبر الدرسات والابحاث حول حركات الهجرة ,
جامعة منتوري قسنطينة

**المقدمة**

كانت القبيلة منذ العهود الغابرة تشكل وحدة سياسية جامعة لكل المؤسسات والنظم المؤمنة للحياة في المجتمعات الداخلية، فقد عمل البايلك على استثمارها وجعلها كصندوق من خلال أداة المخزن التي عرفت تطوراً هاماً لم يسبق له مثيل ؛ إذ أصبح أهم مؤسسة يقوم عليها خارج مناطق العزل.

وقد حافظ الاستعمار الفرنسي على سياسة البايلك الذي كانت فيه القبيلة المعلم السياسي ؛ والذي حاول العثمانيون من خلاله بسط نفوذهم وإدارة الشعوب خارج نطاق بؤر حكمهم في المدن القيادات.

قبل احتلال العاصمة من طرف القوات الفرنسية لم توجد قوات أهلية نظامية لأن العثمانيين لم يسمحوا للأهالي بالاندماج في جيشهم ؛ فالجيش كان يتكون من جنود دخلاء متطوعة من مختلف مقاطعات الدولة العثمانية وبخاصة من الأناضول ومحتكراً من طرف العثمانيين، كما كان يستأثر بجميع الوظائف الإدارية والسياسية [1]. القوات الأهلية الأولى هي التي تم تنظيمها من طرف باي قسنطينة الحاج أحمد بعد سنة 1830 [2]، ثم عن طريق الأمير عبد القادر [3].

لقد أقر فالي عند احتلاله بايلك قسنطينة أنه لا يستطيع إدارة هذا الإقليم بنفسه ؛ والذي كانت تمتد عليه سلطة الحاج أحمد باي [4]، وهذا نظراً للعجز العددي لقوات الجيش التي كان عددها 48000 عسكري، وكانت الحكومة تريد تقليصه إلى 38000. إن هذا التعداد، كما يقول فالي، لا يسمح ببسط نفوذنا على كل مقاطعات البايلك [5]. خاصة وأنه لا يجوز على دعم القبائل القريبة من بؤر الاحتلال مثلما كان عليه البايلك حيث كان المخزن اليد الطولى له انطلاقاً من مناطق العزل التي تم إيضاح أهميتها الجيوستراتيجية في الفصل الخاص بعناصر البايلك وأدواته.

1. Tal Shival, La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle, population et cadre urbain, CNRS éditions, 1998, p. 19.
2. Abdeljalili Temimi : Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830–1837), Publication de la revue d'histoire maghrébine, vol. I, 1978, Tunis, pp. 61-62.
3. Georges Yver, Correspondance du Capitaine Daumas, Consul à Mascara (1837-1839), Alger, Adolphe Jourdain, 1912, p. 60 et suivantes.
4. Valée au ministre de la guerre, 30 août, Op. Cit., p. 35.
5. Valée au ministre de la guerre, 30 novembre 1838.

## 1. المخزن حجر الزاوية في مشروع فالي

وبعد السيطرة على الجزائر حاولت السلطات الفرنسية الاعتماد على نفس الفرق العسكرية التي كان يعتمد عليها النظام البايلكي ؛ وتأطيرها في الإدارة الفرنسية وفق هذا النظام. أي أن فالي اعتمد على نفس الأسس العسكرية التي كان يقوم عليها النظام البايلكي ؛ حيث خلق قوات مساعدة خارج القبيلة المخزنية، ولا يسمح لها بالاندماج في الجيش الفرنسي مع المحافظة على هياكلها التقليدية : « هذه القوة من الأهالي المساعدين يجب أن تخضع لمبادئ تتوافق مع التنظيم القديم بمعنى أنها تكون منعزلة عن التنظيم العسكري الفرنسي »[1]. إلا أنه أحدث تغييرات وتحويرات على البعد الجيوستراتيجي والإداري كان الهدف منها القضاء على القبيلة العسكرية وإضعاف رؤساء الأهالي حتى تتوافق هذه التغييرات مع مبدأ الاستيطان. حيث أعاد تشكيل المخزن ليس على الطريقة العثمانية وإنما إنشاء قوات مساعدة أهلية خارج القبيلة المخزنية وبعيدة عن التنظيم الفرنسي ؛ فكان الأمر عنده لا يتعلق بقبائل المخزن التقليدية بقدر ما يتعلق بالقيمة الحربية لهؤلاء الفرسان الذين أصبحوا يسمون فيما بعد بفرسان إفريقيا.

### أ. القبائل التقليدية أداة المخزن

### البيوتات وأسر السلطة

إن الأسر والقبائل الكبيرة كان لكل منها مخزناً، وكان البايلك يمنح نفوذاً لشيوخ هذه الكنفدراليات على القبائل التابعة لهم مقابل

1. Ministre de la guerre à Valée, 27 décembre 1837, p. 152.

تزويده بالفرسان. فالبايلك كان محدوداً من الناحية السياسية، ومن هذا فإن اتساع مناطق نفوذه يتوقف في الاعتماد على رؤساء هذه العشائر القوية.

وبموجب مراسيم 30 سبتمبر 1838، كما أشرنا، حافظ فالي على شيوخ الكنفدراليات للقبيلة المستقلة، كما كان في العهد البايلكي.

وقد كانت لهذه الأسر القوية قبائل تحت نفوذها تكون منها قوات تابعة لها أي جيوشاً خاصةً بها، وبفضلها فرضت نفوذها على مناطق شاسعة، وتصنف هذه الأسر بالجواد حيث اشتهرت بجيوشها الضخمة ؛ فكانت ترهب القبائل بها أثناء جمع الضرائب.

فالقوة العسكرية لقبيلة الدواودة حددها فيرو في بداية العهد العثماني بـ 1700 فارس بالصحراء، و10000 بمنطقة قسنطينة [1]. أما القوة العسكرية لعائلة آل مقران فتتمثل في قبيلة الحشم ؛ والحشم هم فرسان المقراني الذين ينتمون إلى قبيلة الحشم الهلالية الذين اختارهم أحمد المقراني خلال اشتراكه مع حسين بن خير الدين في افتكاك مدينة وهران عام 1563، وأسكنهم سهل مجانة وأصبحوا بذلك مصدر القوة العسكرية والحرس الخاص للمقرانيين حتى عام 1871 [2]، وتزود العائلة بـ 1000 فارس [3]. وكانت هذه القبيلة تقطن بالأراضي المحيطة بعاصمتهم مجانة ؛ وهي أراضي تلية خصبة

1. Feraud, Les Hrars, Op. Cit., p. 40.
2. Rin (Louis), Op. Cit., pp. 10, 12.
3. AMGH, Op. Cit., p.24

ذات طابع ملكية خاصة منحت من طرف أحد سلاطين العائلة وهو عبد العزيز العباسي لاستقرارهم، فأقطعهم هذه الأراضي، وبنى لهم منازل وبذلك بقيت هذه القبيلة وفية للأسرة [1]. وتتكون عناصر الحشم من عدة فرق توزع بين عدة دواوير، وكانت هذه العناصر تقطن مناطق مجانة، سيدي مبارك، وسنادة [2].

وقبيلة أولاد مولت هي القبيلة المخزنية التي اعتمدت عليها أسرة بن جلاب حيث تزود الأسرة بـ 600 فارس [3]، ونفس الدور الذي تقوم به قبيلة أولاد مولت بالنسبة لتقرت كانت تقوم به قبائل أولاد سباع، أولاد سعيد، وأولاد عمر بالنسبة لعاصمتهم الثانية تماسين [4]. أما القوة العسكرية لعائلة بن قانة فكانت تتشكل من قبائل أولاد رحمون البوازيد التي تزود الشيخ بـ 800 رجل من المشاة و900 من

1. Mouloud Caid, Op. Cit., p. 67.

2. تتكون جماعة الحشم مجانة من فرق مقدم، مجانة، دار الزيتون، أولاد خليف، كشاطة، القرية، حسناوة، خروبة.
تتكون جماعة حشم العناصر من فرق حنايشية ؛ وهم الأغلبية، أولاد شنيتي، مقدم، بليمور، أولاد خلوف، أولاد رباع، بورقد.
تتكون جماعة سيدي مبارك من فرق عين تاغروت، شويحة، بن أحمد، علوانية، سيدي مبارك، ريغة، زمورة، أولاد عكر.
تتكون جماعة حشم صنادة من مزيطة، سيدي موسى، مجانة، والدواوير.
ACMM B181, Dossier Hachem, Rapport du Caïd Boudiaf Sakhri, 08.02.1897

3. منحها أمراء المدينة امتيازات خاصة :
- خصص لهم نصيب معلوم من الضرائب التي تكلف بجلبها من مختلف القبائل.
- يضيف من الغنائم التي تحصل عليها في كل غزوة.
- الإعفاء من الضرائب.

Feraud, Le sahara de Constantine, Op. Cit., pp. 39, 40.

4. Ibid., pp.41, 42.

الفرسان، والصحاري يزودون الشيخ بـ 200 فارس[1]. والواقع أن الشيخ يستطيع الاعتماد على 10000 فارس ويمكن مضاعفة هذا العدد عند الحاجة والضرورة[2]. أما شيخ الحنانشة فيستطيع تجهيز من 4000 إلى 5000 فارس، وعدد كبير من المشاة[3].

وضمت هذه القوات كقوات مساعدة للقوات الفرنسية، إلا أنه كما كان الشأن في العهد العثماني لم يسمح لهذه القوة من الأهالي المساعدين بالاندماج في الجيش الفرنسي: « هؤلاء الأهالي يتحملون من أجورهم ومن مداخيلهم الخاصة احتياجات سلك مسلح يمكن بقاؤهم باستمرار خارج تجمعات الجيش الفرنسي. يقيم هؤلاء الفرسان من الأهالي، كما كان في السابق، بين عشائرهم وأهاليهم مع إخوتهم ؛ يلبسون بنفس الطريقة ويحاربون بنفس الأسلحة تحت قادتهم الطبيعيين التقليديين »[4].

وبذلك استعمل فالي هذه القوة نفسها ؛ التي كان يعتمد عليها بايات قسنطينة والتي ساعدوا على تطوير نفوذها ؛ لمواجهة مقاومة الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر، وكذلك في مد نفوذ الإدارة الفرنسية بهذه المناطق غير الخاضعة وتأمين جباية الضريبة.

1. Feraud, Le sahara de Constantine, Note et souvenirs, Adolphe Jourdain Libraires, éditeurs, Alger, 1889, pp. 219, 220.
2. خوجة (حمدان)، المرآة، تعريب محمد العربي الزبير، الشركة الوطنية للطبع والتوزيع، الجزائر، ص. 74.
3. Peyssonel et des Fontaine, Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris, 1838
4. Ministre de la guerre à Valée, Paris, 27 décembre 1837, p. 152.

### القُوم أو الزمالة

إن القُوم كما تدل عليه التسمية معناه القَوّم، وقد حول المعنى ليصبح ينطق ب «ق» بدل القاف للدلالة على الكثرة، وفي ذات الوقت على قوة الجماعة. وأصبح القوم تشكيلة سوسيوتاريخية سياسية يراد بها الجماعة التي تؤسس درع النظام خاصة في المناطق النائية. وفي المرحلة الفرنسية هذه أصبحوا يسجلون في العشائر ولا يتلقون أجراً إلا مقابل أيام الحضور [1]. يتحمل القوم توفير الخيول بأنفسهم ولم تكن لهم بذلة خاصة، أسلحتهم البنادق ولكن فيما بعد أولتهم فرنسا بعض العناية فمنحتهم أسلحة تمثلت في بنادق من نوع كرابين وسيوف. لا يحمل الفرد من القوم سلاحه إلا بأمر من القائد الفرنسي وعليه أن يكون على أهبة الاستعداد عند أي تكليف بمهمة من السلطة العسكرية الفرنسية، أما أجرتهم فهي محددة لا تتعدى غالباً الفرنك الواحد [2].

### 2. مؤسسة القيادة

هي وحدة إدارية وسياسية واقتصادية تؤكد مركزية البايلك. كانت التشكيلات القبلية التي تدور حول مسار البايلك خارج المشيخات المستقلة تشكل وحدات إدارية وضع على رأس كل وحدة إدارية ضابط تركي أو كرغلي يطلق عليه اسم قايد يدير شؤونها، ومن هنا أطلق على هذه الوحدات اسم قيادة. وهذه الوحدات أو القيادات يخضع فيها القياد إلى سلطة الباي. وأهم القيادات في بايلك الشرق هي :

1. Ibid., p. 188.
2. Passols (C), L'Algérie et l'assimilation des indigènes, éditeurs militaires, Paris, 1902, pp. 30, 31.

## أهم القيادات في البايلك

**قايد الحراكتة أو العواسي** : « شكل الحراكتة تحت حكومة البايلك فرقة قوية يلبس البايات هذا التكليف أحد أقرب أقربائهم. تمنح لهم امتيازات واسعة »[1]. كان الحاج أحمد باي قايد العواسي، وخلال حكمه جعل هذا المنصب لابنه الذي لم يبلغ سن الرشد[2]. وتتشكل قبيلة الحراكتة من 32 خروبة.

**قايد الزمول** : إن قايد الزمول هو الآخر شخصية معتبرة بالإدارة الإقليمية للبايلك، وكان السند والدرع الواقي للسلطة التركية[3]، وقدر عدد فرسانه بـ 300 خيال، وتحتل القبيلة 4000 هكتار من أراضي الدولة[4]، ويدفع قايد الزمول 5000 بوجو كحق تعيين ويدير 22 قبيلة[5].

**قايد عامر شراقة** : وهي تقع على بعد 30 كم من قسنطينة وشرق مدينة الخروب حالياً. تمتد قبيلة عامر شراقة على مساحة تقدر بـ 597 هكتار حسب إحصائية 14 جوان 1867[6]، ويدفع قايد عامر شراقة 1500 بوجو[7] كحق تعيين، وتتشكل كنفدرالية عامر شراقة من ست قبائل[8].

**قايد التلاغمة** : وتمتد سلطته بين أولاد عبد النور وقسنطينة، وقائدها عليه دفع 2000 بوجو[9] كحق تعيين، وتتربع قبيلة التلاغمة

1. Valée au ministre de la guerre, 4 octobre 1838, p. 201.
2. Feraud (Ch.) : RA N° 16, 1872, p. 43.
3. ACC PV N° 283, p.5
4. Feraud (Ch.) : RSAC, 1869, p. 29.
5. AMGH 228, Op. Cit., p. 21.
6. ACC PV 283, Op. Cit.
7. ACC PV 14, p.6
8. AMGH 228, Op. Cit., p.28
9. ACC PV 14, Op. Cit., p.8 et suivantes.

على مسافة 33000 هكتار، وكان للقبيلة أكثر من 500 فارس، وتتشكل الكنفدرالية من 22 فرقة [1].

**قايد البرانية :** لقد سميت هذه القبيلة أو الكنفدرالية بهذا الاسم لأنها تتشكل من غرباء ؛ أي من قبائل عربية وبربرية جمعها البايات. وتقع هذه القبيلة على بعد 50 كم جنوب قسنطينة، وتبلغ مساحتها 465000 هكتار [2]، وتتكون الكنفدرالية من 13 فرقة، وتنقسم إلى أربعة أقسام تسمى خرارب البرانية.

أولاد يعقوب، أولاد عنان، أولاد عجاز كانوا تحت سلطة قايد الزمول.
أولاد زايد، أولاد بلقال كان يديرهم قايد البارود.
المطامطة وأولاد عزيز تحت قيادة الآغا.
أولاد حملة يتبعون الباي مباشرة [3].

**قايد أولاد عبد النور :** تعتبر هذه القبيلة من أقوى قبائل إقليم الشرق، وتتشكل من 30 فرقة. وقد جمعها الحاج أحمد باي في ثلاث مشيخات ووضع على رأسها قايد [4]، ويدفع قايدها 3000 بوجو كحق تعيين. وبإمكان القبيلة تجنيد أكثر من 1000 فارس [5].

**قايد ساحل سطورة :** ويدفع قائدها 500 بوجو لتعيينه، وكان أولاد بوكدرة هم دائرته [6]، ويطلق على هذا الفرع من قبيلة بن مهنة المخزنية الجوابلية [7].

1. AMGH 228, Op. Cit.
2. ACC PV 93, p. 21.
3. Ibid., p. 23.
4. Feraud (Ch.) : RSAC, 1864, p. 34.
5. AMGH 228, Op. Cit., p. 28.
6. AMGH 228, p. 25.
7. Feraud (Ch.) : L’histoire de Philippe ville, RA 1875, p. 99.

**قايد أولاد براهم** : إن قائد أولاد براهم كان يدفع 200 بوجو كحق تعيين، وكانت هذه القبيلة المخزنية دائرته وتتكون من أولاد براهم، وتتشكل هذه القيادة من 10 قبائل [1]، ويطلق على هذا الفرع من بني مهنة السواحلية [2].

**قايد ساحل البابور** : وكلف أحدهما بالشرق والآخر بالغرب، ويدفع كل واحد منهما 1000 بوجو كحق تعيين [3]، ويقع ساحل البابور شمال سطيف.

**عامر الغرابة** : يدفع قايد عامر الغرابة القاطنة قرب سطيف 4000 بوجو كحق تعيين وتضم مزروعاته أكثر من 1000 جابدة [4].

**قايد العمور شراقة** : 6 قبائل.

**قايد الأوراس** : 12 قبيلة.

**قايد سكيكدة** : 9 قبائل.

**قايد زردازة** : عدة قبائل.

وكذلك المدن كانت تؤلف وحدات إدارية.

- فعنابة كانت إحدى الموانئ الهامة للبايلك بها حامية، كان باي قسنطينة يرسل قائداً لإدارة القبائل وعاملاً يعرف بالمركانتي لتحصيل الضرائب والرسوم الجمركية [5].

1. AMGH 228, Op. Cit.
2. Feraud (Ch.) : L'histoire de Philippe ville, Op. Cit.
3. AMGH 228, Op. Cit.
4. Feraud (Ch.) : Histoire des villes Setif, RSAC 1872, p. 86.
5. Derdour (H) : Annaba : 25 siècles de vie quotidienne, T2, Alger, SNED, pp. 41-42.

ـ تبسة : تشكل هذه المدينة عمق البايلك في حدوده الشرقية خاصة وأنها تمثل نقطة التماس بين حدود البايلك وتونس، وتسيطر على الطريق الذي يربط القوافل التجارية لقسنطينة بتونس [1]، وبها حامية تتكون من 29 رجل، ويدفع قائدها 500 بوجو كحق تعيين [2].

ـ زمورة : كان للمدينة قائد يدفع 500 بوجو كحق تعيين وحامية تضم 100 جندي، وقدرت المساحة الإجمالية لهذه القبيلة بـ 21553 هكتار، وتعتبر المدينة بمثابة نقطة ارتكاز فيما يتعلق بالاتصالات ببجاية [3].

ـ ميلة : وبها حامية تركية ويدفع قائدها 1000 بوجو كحق تعيين، وتتربع على مساحة 18322,3 هكتار [4]، وهي نقطة ارتكاز لمراقبة القبائل الشرقية الجبلية.

ـ بسكرة : عاصمة الزاب، تضمن حدود بايلك الشرق من الناحية الجنوبية، كان يحكم هذه المدينة التي يتراوح عدد سكانها بين 1800 و2000 ساكن قايد، وبها حامية تركية أعداد أفرادها 100 جندي [5].

ـ المسيلة : وكان لها قائد يدفع 500 بوجو كحق تعيين وبها حامية تركية من 100 جندي، وتعتبر نقطة الاتصال بين الصحراء ودار السلطان، وبين دار السلطان وبايلك قسنطينة [6]. وقد لعبت عائلة بن يلس الكرغلية دوراً هاماً بالمنطقة ؛ حيث تقلد أحد أفرادها محمد الصغير بن يلس قائد المسيلة، وتولى أخوه أحمد خوجة منصب قايد

1. ACC PV 272, Tebessa, p. 2.
2. Tachrifat, Op. Cit., p. 35.
3. ACC PV N° 280, p. 21.
4. ACC PV 164, p. 22, AMCH 228, p. 29.
5. AMGH 228, Op. Cit., p.16
6. Ministre de la guerre TSE F 1840, p. 534.

أولاد دراج بالمسيلة أيضاً، كما تولى صالح بن أحمد خوجة منصب قائد على قبيلة عامر سطيف، محمد خوجة قايد على البابور [1]، وكلهم من نفس عائلة بن يلس.

وهناك ما يقارب 22 موظف برتبة قايد بالإضافة إلى أربعة قياد يشرفون على مدن تبسة وميلة وزمورة والمسيلة [2].

وكانت القيادات تلعب دوراً اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، ونذكر منها :

**قيادة ميلة** : هي بمثابة مركز مالي تدعمه دواير السراوية [3] التي استقرت على أراضي عزلية، كذلك كانت مدعمة بـ 1000 فارس من دواير الآغا ودواير بوسلة (واد بوسلة) [4] بحوض فرجيوة التي تشكل نهاية النظام الإداري والخلفي لقيادة ميلة، فهي مجال عازل للقبائل المستقلة الجبلية التي ترفض العلاقة الأساسية ؛ وهي دفع الضريبة.

**قيادة عامر الغرابة** : التي استقرت على أراضي عزلية تقدر بـ 8815 هكتار [5]، وهي قيادة مخزنية تشكل نهاية النطاق الإداري للبايلك من الناحية الغربية مدعمة بدواير واد الذهب العزلية التي اقتطعت من نفس القبيلة (عامر الغرابة)، وكانت تتكفل بالسهر والحفاظ على مطاحن البايلك المقيمة بواد الذهب، ومراقبة زراعة الأراضي البايلكية التي تضم أكثر من 1000 جابدة [6].

---

1. Feraud (Ch.) : Histoire des villes Setif, RSAC 1872, p.86
2. Vayssette : Histoire de Constantine, RSAC, 1867, pp. 266-267.
3. Luis Rin, Op. Cit.
4. Ibid., p. 130.
5. B. O., Ibid.
6. AMGH 228, Op. Cit., p. 28.

**من الناحية الشمالية** : التي تربط عاصمة القيادة بالمناطق البحرية تمثل قيادة ساحل سطورة (الأراضي الموجودة بين الحروش وسكيكدة حالياً) التي كانت قيادة قبيلة بني مهنة العزلية الحزام الجغرافي للبايلك الذي يتمثل في ميناء سطورة الاستراتيجي، وكانت بمثابة دايرة مخزنية تديرها دواير عدد فرسانها 50 فارس [1]. إضافة إلى قيادة ساحل سكيكدة التي استقرت على الأراضي العزلية لأولاد عطية التي قدرت مساحتها بـ 73986 هكتار [2] مدعمة بـ 200 فارس [3] ؛ كانت تتكفل بحماية ميناء القل أحد الموانئ الهامة للبايلك، ومراقبة الطرق التي تربط البايلك بساحل سكيكدة. فهي تمثل المجال العازل للقبائل المستقلة المتمردة على البايلك.

وهناك بعض القيادات كانت تلعب دور المخزن بكاملها في صالح السلطات البايلكية ومنها قيادة قبيلة الزمول وقبائل الدواير وقبيلة الحراكتة. كما كانت بعض القيادات تمثل نهاية النطاق الإداري للبايلك ومراكز مالية مثل قبيلة قرفة التي تعتبر دائرة مالية : « كل القياد الذين تعاقبوا على قيادة قرفة كان يقتصر عملهم على جمع الضريبة » [4]. إذن فهذه القيادات تمثل بعداً جغرافياً واقتصادياً وعسكرياً ونهاية النظام الإداري للبايلك، كما كانت تمثل دوائر مالية ومخزنية ؛ حيث تعتبر المصدر التقليدي لسد الضرائب، كما كانت توفر مبالغ مالية عينية ونقدية، وكان الهدف من ربط هذه القيادات

1. Louis Rinn, Op. Cit., p. 131.
2. B. O., Op. Cit.
3. Luis Rin, Op. Cit., p. 131.
4. Maguelonne (J) : Monographie et historique de la tribu des Sellaoua Kherareb, RSAC, 1914, pp. 113-114.

هو محاولة ربط المنطقة سياسياً واقتصادياً بمركز البايلك. وهو النظام الذي تم تسطيره من الماريشال فالي ؛ فثبت ما هو تقليدي من حيث التقسيم الجغرافي فأبقى على الوطن وعلى القبيلة أساس المجتمع الأصلي. فقسم هذه القيادات إلى دوائر، ووضع القياد والشيوخ مباشرة تحت القادة العسكريين. ولما عين حمودة بن لفقون حاكماً على قسنطينة وإقليمها ؛ فإلى جانب المهام التي أسندت إليه كان يعين القياد والشيوخ حسب العادة القديمة، فاحتفظ بمراسيم التقليد والتشريفات التي كانت سائدة في عهد الحاج أحمد باي؛ حيث أن المادة التاسعة من مراسيم 30 سبتمبر 1838 تحدد ثوب الشرف الذي يتحصل عليه القياد والشيوخ : « لم أغير شيئاً في عادات وعرف البايلك، وظلت مثلما كانت عليه في عهد الحاج أحمد باي ». فقد كان يقوم حمودة بتوزيع البرانس والقنادر باسم فرنسا على أهم الشيوخ والقياد، واستند فالي أيضاً مثل العثمانيين على الأعيان الذين كان يختار منهم القياد : « الرجال الذين يكون مولدهم وثروتهم وقيمتهم تضمن سلطة غير قابلة للنقاش على إخوانهم في الدين، وأين لا يمكن أن يكون ولاؤهم ووفاؤهم لفرنسا محل نقاش »[1]. لذا عمل فالي بعد احتلاله لمدينة قسنطينة ألا يتم تعيين قياد غرباء عن القبائل التي كانوا يديرونها كممثلين للحكم البايلكي السابق.[2]

ومن هؤلاء القياد الذين عينهم حمودة بن لفقون حسب الطريقة التقليدية نجد :

1. Valée au ministre de la guerre, 4 octobre 1838, p.
2. Filali Kamel, Du don et du présent dans l'offic matiou du pouvoir Ottoman, Arab. Historical Kevew, Nov. 2007.

برنوس إلى أحمد بن الشريف شيخ أولاد ريغة.
برنوس إلى الآغا بوزيان بن العلمي.
برنوس إلى ابن هني قايد عامر الغرابة.
برنوس إلى العربي بن عون قايد التلاغمة.
برنوس إلى العربي بن العلي قايد عامر الشراقة.
برنوس إلى ابن العطار قايد ميلة.
برانيس إلى شيوخ الحراكتة.
برنوس إلى قايد العزل.
برنوس وقندورة إلى شيخ زواغة.
برنوس إلى القايد أحمد بن هني.
برنوس إلى قايد أولاد داود.
برنوس إلى قايد سدراتة.
برنوس إلى شيخ سدراتة.
برنوس إلى قايد العشور.
برنوس إلى شيخ ابن عز الدين.

كما تقلد برنوس التنصيب محمد الصغير بن فرحات بن مراد في منصب قايد على قبيلة « قرفة » الذي كان قائداً عليها في السابق [1]، كما عين على قبيلة أولاد عبد النور التي جمعها الحاج أحمد باي في ثلاث مشيخات تحت قايد ؛ فقسمت إلى سبع مشيخات في عهد فالي، ووضع « قياد » عليها من الأعيان، وهم على التوالي : الحاج أحمد بن زكري، وهو من أعيان قسنطينة كانت عائلته تتقلد

1. Valée au ministre de la guerre, 27 janvier 1838, p. 218

منصب باش سيار وباش سايس، ثم من بعده محمد بوعزيز بن قانة أحد أفراد عائلة شيخ العرب، ثم صالح بن بابا أحمد؛ وهو من العائلات التي كانت تتقلد المناصب في قبيلة الزمول[1]، كما قلد برنوس القيادة الجنرال نيغريي سنة 1839 إلى السعودي بن آنال الذي كان قائداً سابقاً على قبيلة بن مهنة السواحلية في عهد الحاج أحمد باي، وعين الشيخ بوروبي قائداً على قبيلة بن مهنة الجوابلية التي كان قائداً سابقاً عليها[2].

وكان هؤلاء الشيوخ والقياد الذين ذكرناهم آنفاً كلهم يتقلدون نفس المناصب في عهد الحاج أحمد باي. وكان يختار القياد من بين صفوف العائلات الكبرى المخزنية، فأسند الماريشال فالي إدارة شؤون قبيلة الحراكتة لصالح بن علي بن بوزيد الذي أصبح بموجبه قائداً لقبيلة الحراكتة المخزنية، كما عين أحمد باي بن شنوف من عائلة بن شنوف الشهيرة قائداً على الأوراس والزاب الشرقي التي كان شيخاً عليها في السابق.

أما بالنسبة لمهام القياد فقد حافظ عليها، وكانت المهمة الأولى لقياد الأوطان في السابق تتمثل في تحصيل الضرائب ؛ لذا كان القايد منهم يدعى قائد العشور، وكانت هذه الوظيفة تقليدية [وراثية] في عائلة بن نعمون[3].

1. Feraud (Ch.) : Notice sur les Ouled Abdennour, RSAC, 1864, pp. 198-199. Voir également Filali Kamel, Op. cit.
2. Feraud (Ch.) : L'histoire de Philippeville, RA, 1875, p.99
3. Feraud (Ch.) : Notice sur les Ouled Abdennour, RSAC, 1864, p. 212.

وخلال حكم أحمد باي كانت المقاطعة مقسمة إلى دائرتين ؛ دائرة الشمال والشرق ودائرة الجنوب والغرب، وعين قائدين لتحصيل العشور، وكانا معروفين بقايد الشرق وقايد الغرب، وكانت مهمة القائدين معاينة المحاصيل وتقديرها قبل فرض الضريبة، وهناك قائد ثالث يسمى قائد عزل البايلك مكلف بإدارة ممتلكات البايلك. وفي الأخير قائد رابع تحت اسم قائد الباب مكلف بتحصيل الرسوم على أبواب المدينة : « هذا النظام بسيط ويتناسب مع عادات العرب، ولذا أمرت بمواصلة اتباعه »[1]. فبالإضافة إلى هذه المهمة كانوا يقومون بمراقبة القبائل وتحركاتها ومساعدة البايلك أثناء التمردات، وهذا ما يثبته بالذات بموجب المادة الرابعة من قانون القيادة التي تنص على : « أن القايد مسؤول شخصياً على السرقات والفوضى والاغتيالات والتمردات التي تحدث في قيادته »[2].

ومقابل هذه المهام كان القياد يتمتعون بامتيازات في العهد البايلكي ؛ كأن يأخذ القائد واحد بوجو عن كل ملكية، و 2 بوجو على كل زويجة مزروعة، ويصرف المبلغان المقبوضان لصالح الصبايحية الذين يصحبون القايد في مهمته المذكورة[3]. كما يستفيد القائد من الباقي ؛ فبموجب المادة الأولى من قانون القيادة تنص : أن القائد يجب أن يأخذ ربع العشر ونصف كتعويض عن حرمانه، والمادة الثانية تنص على أن القايد بالنسبة للحكر يحتفظ بربع الحبوب[4]، وبذلك أصبح القياد لا يتلقون مرتباً بل يتلقون نسبة من الضرائب

1. Valée au ministre de la guerre, Alger, mars 1838, p. 301.
2. Valée au ministre de la guerre, 27 janvier 1838, Op. Cit., p. 218.
3. AMGH 226, pp. 1-2.
4. Ibid.

التي كانوا يجمعونها علاوة على حقوق العادة : « أن الشيوخ والقياد يستمرون في الحصول على حقوق العادة »[1]، وبذلك حافظ فالي على نظام القيادة كبعد إداري وجيوستراتيجي ؛ وهي أحد المفاهيم الأساسية لمفهومية البايلك.

## 3. أراضي العزل

العزل هو نظام ومؤسسة جيوستراتيجية تدخل في أيديولوجية البايلك لأنها تقوم على اقتطاع أجود الأراضي للقبائل والفئات الاجتماعية المساندة للنظام.

كانت هذه الأراضي بيد السلطة المركزية وقد استغلها البايلك كأداة لتكوين قوات مساعدة للجيش النظامي ؛ حيث تقام عليها القبائل المتحالفة مع النظام ممثلة في قبائل الزمول والدواير، كما كانت تمنح لموظفي البايلك والأسر الشريفية المرابطية لخلق قاعدة اجتماعية من هذه الأسر متحالفة مع سلطة البايلك.

كان عزل بايلك قسنطينة تابعاً لقائد الدار، ويرجع الفضل في تكوين هذه المؤسسة إلى صالح باي[2]. فكان هذا ما قام به بالنسبة لقبيلة عامر شراقة التي أخذ ثلاثة أرباع مساحتها التي كانت تقدر بـ 597 هكتار، وجعلها أراضي عزل لدرجة أنها أصبحت تسمى ببلاد صالح[3]، وكذلك بالنسبة لقبيلة بن مهنة التي ساعدها على الاستيلاء على أراضي قبائل سكيكدة ورفعها إلى قبيلة مخزنية[4].

1. Valée au ministre de la guerre, 4 octobre 1838, p. 205.
2. Feraud (Ch) : Histoire de philipeville, RA, 1875, p. 99.
3. ACC PV 14, pp. 5, 17.
4. Feraud (Ch.) : Histoire de Philipeville RH, 1885, p. 99.

إن أصل هذه الملكيات المتنوعة كانت تتألف أساساً من الأراضي المصادرة التي كانت ملكاً للقبائل وتمنح للعشائر التي تمد البايات بالقوة العسكرية.

اقتطع البايلك للزمول مساحة تقدر بـ 13297 هكتار، كما ينضوي تحت هذا الاسم [1] أراضي عزل بلزمة 12982 هكتار، وأراضي عزل الزوي التي تقدر بـ 1082 هكتار [2] حتى يستفيد من قوة هذه القبيلة التي كان عدد فرسانها 3000 خيال. « أنه في كل سنة تصل القبائل الصحراوية إلى الجهات القريبة من عاصمة البايلك قسنطينة، فلا يسلم من فسادهم من الحقول المزروعة إلا النزر القليل » [3]. كما كانت هذه القبيلة تقوم بحراسة الممرات الجبلية لنواحي باتنة وتعمل ليبقى طريق بسكرة مفتوحاً أمام تحركات الحاميات العثمانية. ويشرف على مراقبة كتلة بلزمة من طرف عائلة بن سديرة التي تراقب السفوح الشمالية للأوراس، أما الجهات الغربية للأوراس فهناك مخزن بن دايخة الذي يقوم بمراقبة القبائل القوية لأولاد سلطان الجبلية [4]. وبذلك تشكل هذه القبائل التي تقيم على أراضي العزل حزاماً جغرافياً وأمنياً للبايلك من الناحية الجنوبية. كما كانت تمثل قبيلة قرفة الحدود الفعلية والحزام الجغرافي من الناحية الشرقية، وهي قيادة مخزنية تشكل نهاية النطاق الإداري للبايلك، تدير دائرة

1. Luis Rin : Le royaume d’Alger sous le dernier Dey en 1830, Alger, Adolphe Jourdain éditeur, Alger, 1898, RH 1898, p. 131.
2. ACC PV 283 (Zmoul), pp. 9-11.
3. AMGH 228, Op. Cit., p. 15.
4. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 271.

مخزنية عدد فرسانها 200 فارس[1]، وهي حزام أمني للبايلك من الخارج، كما ثبت البايلك بالناحية الشرقية دواير الزناتية على أراضي عزلية اقتطعت من أراضي قرفة كانت مكلفة بالأمن ومراقبة المراكز المالية ؛ فهي شريط حماية من الداخل، وعدد فرسان قبيلة هذه الدواير ما يقارب 1000 خيال[2].

كما كانت تمنح هذه الأراضي للأعيان وكبار موظفي البايلك. فبوزيان العلمي الذي تولى منصب آغا الدايرة تحصل على عزل أخذ تسميته ببلاد بوزيان.

وسي بونوارة تحصل على بلاد أخذت تسميته ببلاد بونوارة.

بلد بوسطانجي أطلق عليهم نفس الاسم الكرغلي.

عين حجر، طالة عامر، شال الفتنة، عين لقبال، هنشير الباي التي منحت إلى سي بلبجاوي قايد الدار من طرف الحاج أحمد باي. فكانت أراضي هذا العزل مقتطعة من أراضي عامر الشراقة[3].

أما اولاد يعقوب، أولاد عنان وأولاد عجز من قبيلة البرانية والذين استقروا على أراضي العزل يتبعون قايد الزمالة فكانوا معفون من الضرائب[4].

كما كانت تمنح هذه الأراضي للأسر الشريفية والأسر المرابطية. فعندما لا يستطيع البايات استغلال هذه الأراضي بواسطة القبائل المخزنية فإنهم يحولونها إلى قسم تابع لتشكل حزاماً أمنياً للبايلك.

1. Luis Rin, Op. Cit., RA 1899, p. 132.
2. AMGH 228, p. 6.
3. ACC PV 14, p.22 et suivantes.
4. ACC PV 93, p. 23.

فحولت قطاعات غنية إلى بن لفقون كحبوس ؛ خاصة تلك الواقعة بين قسنطينة والسمندو، وبنفس الطريقة بالنسبة للمرابطين سي بلقاسم بوحجر والشيخ الزواوي وسي بغريش بالقل ؛ فالكل يتمتع بأراضي العزل الممنوحة من قبل الباي.

## العزل وعقد البايلك

كان البايات بعد عودتهم من الغزوات على قبائل الإقليم يعودون بقطعان ماشية تصل أحياناً إلى 100.000 رأس من الغنم [1]. وفي كل مرة يستولى على قطعان الأغنام والأبقار والجمال والخيول يوزعهم على القبائل يتكفل بحراستها رعاة أو جلابة، وكان هذا الاحتياط يزداد كل سنة، ولم يعد البايات يستطيعون مراقبة رعاتهم، إلى أن تولى الباي زرق عينه (1771) حكم البايلك فنظم هذا الاحتياط، وأنشأ إدارة خاصة تسير قطعان وأنعام البايلك [2]، وكانت الأراضي المخصصة لرعيها مسماة عقد البايلك (Agued el Beylik) [3]، وتقدر مساحتها بـ 25000 هكتار اقتطعت من أراضي قبيلة أولاد عبد النور وقبيلة البرانية والتلاغمة والزمول [4]، بالإضافة إلى مروج البحيرة الطويلة [5]؛ التي كانت تقدر مساحتها بـ 1700 هكتار، وكان عقد البايلك تحت رقابة قايد العزيب [6]. وبذلك مثلت أراضي العزل بعداً استراتيجياً عسكرياً للاحتياط البايلكي.

1. AMGH 228, Op. Cit., p. 38.
2. ACC PV N°93, p. 22 et suivantes.
3. Feraud (Ch.) : RA 1869, pp. 62-63.
4. Feraud (Ch.) : Notice sur les Ouled Abdennour, RSAC 1864, pp. 250-25.
5. Feraud (Ch.) : RA 1869, pp. 35-36.
6. ACC PV 93, Op. Cit., p. 22.

فالعزل هو منطقة استراتيجية ذات أبعاد جغرافية واقتصادية وعسكرية واحتياطية وحزام أمني لحماية البايلك، وهذا ما يحدده بالذات الجنرال نيغريي في رسالته إلى الماريشال فالي في 3 ماي 1838 بقوله : «إنه من الضروري ضم المنطقة التي يأتينا منها يومياً تموينا من الحبوب والملح والكلأ التي تضم الجزء الأكبر من الدواوير والملكيات الخاصة لسكان المدينة»، «تضم هذه المنطقة إلى الغرب كل الأراضي بين قسنطينة وميلة إلى الجنوب الغربي قبيلة أولاد عبد النور وإلى الجنوب التلاغمة الزمول السقنية وأخيراً في الجنوب الشرقي واد الزناتي وكل القبائل التي خضوعها مضمون والتي لها علاقات يومية مع قسنطينة مشكلة الدائرة التي نراها أنه من الضروري الاستيلاء عليها لمنع أي هجوم، كذلك من المصلحة يجب عدم التردد بضم قبيلة فرجيوة التي تحمي ميلة من هجمات عبد القادر المحتملة، علاوة على قبيلة الحراكتة التي تتبع السقنية وواد الزناتي وتغطي ملكيات قالمة؛ فلا يخشى من الهجمات المباغتة طالما هذه المنطقة تخضع لتأثيرنا المباشر»[1]. ولذلك ما إن استولى فالي على مدينة قسنطينة حتى تبنى فكرة الجنرال نيغريي وعمد إلى الاستيلاء على هذه الأراضي التي هي جزء من ممتلكات الدولة : «لقد صادرت الدولة جميع ممتلكات البايلك ووضعتها تحت إدارة مجلس المقاطعة أنها فرع من الموارد العامة التي تمنح فيما بعد لفرنسا إمكانية تأسيس مستعمرات فرنسية ومنحها بالمجان للفرنسيين»[2].

1. Bernard Augustin : Une lettre du général Négrier au Maréchal Valée, in RSAC, TL XIX 1837, 1937, Constantine, son passé, son centenaire.
2. Valée au ministre de la guerre, 4 octobre 1838, p. 205.

لذلك قسم فالي هذه المنطقة الاستراتيجية إلى دوائر، ووضع القياد والشيوخ تحت القادة العسكريين مباشرة ؛ وهي تخضع لنظام عسكري موجه للاستيطان.

فأراضي العزل هي الإقطاعات التي تتواجد حول عاصمة البايلك والمناطق القريبة من المدن الإقليمية [1]، كما تنتشر في المناطق القريبة من مدن الإقليم [2]. وقد ظلت هذه الأراضي أراضي بايلكية.

وتبرز أهمية أراضي العزل في كونها تشتمل على أحسن وأخصب أراضي البايلك، وتشمل الملكيات الكبيرة، وتوجد على أراضي سهلية ذات موقع استراتيجي، وتتوفر على مصادر كبيرة من المياه، كما أنها كانت المصدر الأساسي للحبوب للبايلك والوصاية.

فالعزل مهم جداً في بايلك الشرق لأنه كانت تستقر عليه القبائل المخزنية والتشكيلات القبلية التي كانت تدور حول مسار البايلك

1. أنظر العزل بالمناطق القريبة من المدن الإقليمية.
عزل القالة، أنظر :
Feraud (Ch), Histoire des villes de la province de Constantine, La Calle, Alger, Assoiciation Bouners, 1877, p. 43.

عزل عنابة الذي يوجد تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب، أنظر :
Feraud (Ch), Document pour servir à l'histoire de Bône, R.A., 1873.

عزل سكيكدة، أنظر :
Feraud (Ch), Document pour servir à l'histoire de Philippeville, R.A., 1875.

2. ففي غيابه توجد أراضي العزل ببحيرة فزازة المحيطة بمدينة عنابة تحت قيادة بلقاسم بن يعقوب.
Feraud (Ch.) : Histoire de Bone, RA 1873, p.9

تبسة : كانت أراضي العزل الموجودة بهذه المدينة بيد الأتراك ولا تفرض عليها ضرائب.
Emirit : Les tribus privilégiées, p.41

إن أعضاء حكومة الباي كانوا يسيطرون على معظم الأعزال وأراضي الدولة ساحل سكيكدة.
Feraud (Ch.) : Histoire de Philipeville, p.52

والتي يترأسها قياد. وجعل من مقاطعة قسنطينة أول منطقة منتجة للحبوب للبايلك والوصاية [1]. عزل قسنطينة بعد إعادة تشكيل عشائر الشرق الجزائري من طرف عبد الكريم بجاجة يبدو شاسعاً ؛ فهو يمتد من الغرب إلى الشرق من حوض فرجيوة إلى سهل سيبوس (منطقة قالمة) لينزل كشريط ضيق إلى الشمال نحو سكيكدة وما جاورها [2]. وحسب السيدة بن معطي فإن إحصائية 1867 التي أنجزت تطبيقاً لـ « سيناتوس كونسلت » (Senatus Consult) تبين أن أراضي العزل تمثل 149993 هـ لبايلك قسنطينة [3]. وحسب الكشف الرسمي (Bulletin officiel) أن أراضي العزل التي استقرت عليها معظم القيادات وقبائل المخزن تشكل دائرة بعاصمة الإقليم تتمثل في :

| | | | |
|---|---|---|---|
| قبيلة عامر شراقة | 1558 هـ | منطقة موية (ميلة) | 4185 هـ |
| عزل عنابة | 14430 هـ | 36 عزل قسنطينة | 29729 هـ |
| 60 عزل قسنطينة | 5527 هـ | سواحلية أولاد عطية | 37986 هـ |
| أولاد عبد النور | 18625 هـ | منطقة قرفة | 51147 هـ |
| زواغة عبد النور | 9168 هـ | عامر الظهرة | 8885 هـ |
| 62 واد الزناتي | 43188 هـ | العلمة مسالة | 4593 هـ |
| أولاد جبارة | 11383 هـ | البرانية | 3340 هـ |
| منطقة سقنية | 3900 هـ [3] | | |

1. إيف لاكوست، المصدر السابق، ص. 188–189.
2. Abdelkrim Badjadja : Cartographie agraire de l'est algérien à la fin du XIX[e] siècle, DEA, Constantine, 1974.
3. Manouba Benmati : Hamana de la tribu à la révolution agraire, les statuts fonciers dans l'est algérien, approche cartographique, Tèse du 3[e] cycle, Université Montelier, 1985, p. 21.
4. B.O. 1865-1866-1867-1888.

لقد كانت مؤسسات المخزن والقيادة والعزل تمثل الأعمدة التي يرتكز عليها النظام البايلكي كبعد جغرافي وإداري وجيوستراتيجي مؤمن للبايلك وعازل للقبائل المستقلة وشبه المستقلة.

فما هي التحولات التي طرأت على هذه المؤسسات في عهد الماريشال فالي وبالتالي على القبيلة المخزنية ؟

في هذا الاتجاه نفسر القرار الذي اتخذه الماريشال فالي الذي حول بموجبه أراضي البايلك المحيطة بعاصمة القيادة إلى فرع من الموارد العامة، وكان يهدف من الاستيلاء على هذه المؤسسة منح فرنسا إمكانية تأسيس مستعمرات استيطانية ومنحها بالمجان للمهاجرين الأوروبيين، ومس هذا القرار نفسه أراضي العزل التي كانت في العهد العثماني تستقر عليها قبائل الزمول والدواير. وبذلك جرد هذه القبائل من القاعدة الأساسية التي كانت تعتمد عليها ؛ وهي الأرض. كذلك القرار الذي أعاد بموجبه تشكيل المخزن، ليس على الطريقة العثمانية، وإنما إنشاء قوات مساعدة خارج القبيلة المخزنية وبعيدة عن التنظيم الفرنسي؛ فكان الأمر عند فالي لا يتعلق بقبائل المخزن التقليدية بقدر ما يتعلق باستثمار القيمة الحربية لهؤلاء الفرسان الذين ينتمون إلى القبيلة، غير أن إدماجهم يكون عن طريق التعاقد الحر مقابل مرتب مع الاحتفاظ بأسلحتهم وهياكلهم التقليدية خارج الجيوش الفرنسية، وضُمَّت كقوات مساعدة، كما كان الشأن في السابق، في الصبايحية أو الخيالة، أو قوات احتياطية في الصبايحية الإضافيين؛ وبذلك استعملت هذه القوة من الفرسان كقوة مساعدة للجيش الفرنسي

وكشريط مؤمن للاستيطان. كما مس القرار كتائب القبائل ؛ حيث كان هناك بعض القياد برتبة شيوخ أقل شأناً من شيوخ القبيلة المستقلة مثل شيخ قصر الطير، وشيخ الأوراس، وشيخ بلزمة، وشيخ الحراكتة يمارسون صلاحياتهم بمساعدة فرسان من القبيلة معروفون بالمرازقية فجُرد هؤلاء الشيوخ من قوتهم وضُمت كقوات مساعدة للجيش الفرنسي ؛ وذلك لإضعاف رؤساء الأهالي المحيطين بعاصمة القيادة.

وبذلك يكون الهدف الاستراتيجي لمشروع الماريشال فالي يتمحور حول نقطتين أساسيتين تستمر عليهما جميع المشاريع الاستعمارية اللاحقة وتتمثلان في تفكيك القبيلة كمعلم قام عليه نظام البايلك، وهذا التفكيك أدى إلى ظهور نظام استعماري يعتمد في الداخل على القرية الاستعمارية (le village colonial) كبديل للقبيلة. ولكن في سنه لهذا النظام الإداري الجديد لم يخرج فالي من خاصية الابتزاز مثلما كانت القبيلة بالنسبة للمخزن في النظام البايلكي بالعكس. إن القوى الاستعمارية أصبحت تكرس مبدأ الاستغلال والاستيطان معتمدة على القوم الذين يسيطرون في مرحلة قادمة ليصبحوا

# التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال والفضاءات الحضرية

أ.د. فضيل دليو
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة منتوري قسنطينة

**الملخص :**

يختلف علماء الاجتماع في تقييمهم لقدرة التقنيات على تحويل المجتمع. فمنهم من يرى أن المجتمع هو منشأ التقنية والإنسان صانعها، ومنهم من يرى أن المحيط التقني هو منتج التجمعات السكانية ومحدد أشكالها. ومهما كان الأمر يجب الفصل بين التقنيات العادية والتقنيات التي أحدثت ثورات اجتماعية حقيقية قلبت التنظيمات الاجتماعية وفضاءاتها الحضرية رأسا على عقب. وتعتبر "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" (NTIC) إحداها، حيث أدت إلى ظهور ما يسمى بمجتمع المعلومات، والذي أدى بدوره إلى ظهور فضاءات اصطناعية – افتراضية تجاوزت حدود الفضاءات الحضرية التقليدية. فانتقلت بذلك الكثير من الأنشطة الخاصة بالحياة الحضرية إلى فضاء الشبكات الرقمية، المكون من

حواسيب وألياف وأقمار صناعية، متسببة بذلك في ظهور وظائف حضرية جديدة وتحول أو اختفاء بعضها الآخر. وهو الأمر الذي يعيد إلى الأذهان قلة اهتمام الدراسات الحضرية بأثر "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" على الفضاءات الحضرية (السكنية، العمومية، المهنية) : شكلا ومضمونا. ولذلك كان هذا الأثر مقصد هذه الورقة، ولكننا سنكتفي فيها بعرض بعض أبعاده وذلك بعد أن نعرج في عجالة على مفهوم المدينة وخصائص "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال".

**مقدمة :**

يختلف علماء الاجتماع في تقييمهم لقدرة التقنيات على تحويل المجتمع. فمنهم من يرى أن المجتمع هو منشأ التقنية والإنسان صانعها، ومنهم من يرى أن المحيط التقني هو منتج التجمعات السكانية ومحدد أشكالها. ورغم ذيوع الرأي الأول لكون الإنسان هو فعلا مبدع ومحرك التقنية، والتي، بالإضافة إلى ذلك، لن يكون لها وجود تاريخي ولا تعمير معتبر دون تبن اجتماعي وجماعي لها، فإنه لا يمكن إغفال البعد الحدثي المقدر لبعض المستحدثات والمخترعات التقنية: تفاحة الجاذبية، المحرك الانفجاري... والتي أنتجت تحولات اجتماعية، اقتصادية وثقافية معتبرة.

وعلى كل يجب الفصل بين التقنيات العادية والتقنيات التي أحدثت ثورات اجتماعية حقيقية قلبت التنظيمات الاجتماعية وتنظيماتها الحضرية رأسا على عقب. وتعتبر "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" (NTIC) إحداها، حيث أدت إلى ظهور ما يسمى بمجتمع

المعلومات، والذي أدى بدوره إلى ظهور فضاءات اصطناعية – افتراضية تجاوزت حدود الفضاءات الحضرية التقليدية. فانتقلت بذلك الكثير من الأنشطة الخاصة بالحياة الحضرية إلى فضاء الشبكات الرقمية متسببة في ظهور وظائف حضرية جديدة وتحول أو اختفاء بعضها الآخر. وهو الأمر الذي يعيد إلى الأذهان قلة اهتمام الدراسات الحضرية بأثر "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" على الفضاءات الحضرية : شكلا ومضمونا. ولذلك كان هذا الأثر مقصد هذه الورقة، ولكننا سنكتفي فيها بعرض بعض أبعاده وذلك بعد منعطف مفاهيمي مفصل يخص "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" وآخر مختصر يخص المدينة التي تركنا الإحاطة بها لأهل الاختصاص من علم الاجتماع الحضري والتهيئة العمرانية وتاريخ المدن والجغرافيين الذين هم أقرب وأجدر بذلك.

## 1- التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال

قبل الكلام عن أثر التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال على الفضاءات الحضرية وتحويل أهم وظائفها إلى فضاء اصطناعي – افتراضي، حري بنا أن نعرف بـ"المتغير المستقل" من خلال عرض هادف لكل من مفهوم التكنولوجيا ومفهوم التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال كمحركة لهذا الفضاء الجديد :

### - التكنولوجيا :

بداية يمكننا القول أن التكنولوجيا هي علم الصناعة الذي لا يشمل فقط العتاد والتجهيزات والتقنيات التي يستخدمها الإنسان

خدمة لأغراضه وتحقيق مستلزماته وقضاء حاجاته داخل المصنع أو المجتمع، بمعنى أنها لا تقتصر على الجانب المادي فقط بل تحتوي على موضوعات التنظيم والإدارة وممارسة عملية العمل والقيادة... في شتى النواحي التنظيمية. كما أنها نتاج اجتماعي وثقافي يشمل الأفكار والمعتقدات والسلوك وجميع التصورات والقيم التي يستمدها الفرد من خلال تعامله مع الطبيعة والمجتمع، لأن التكنولوجيا قبل أن تكون آلة أو جهازا معينا فهي فكرة تولدت عن حاجة أو رغبة اجتماعية معينة. وفوق هذا وذاك، فإن تأثير التكنولوجيا لم يتوقف عند حدود المصنع بل يشمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع. وبالتالي يكون فهمنا العام للتكنولوجيا يشير إلى أنها: مجموعة من الآلات والمعدات والتقنيات والمعارف العلمية والأفكار والوسائل التي يعتمد عليها الإنسان لتحقيق حاجياته في بيئة اجتماعية معينة. بمعنى أن للتكنولوجيا ثلاثة أبعاد : -1 الآلات والمعدات التي يستعملها الإنسان، -2 المعارف والأفكار التي تمكن من استخدام هذه الآلات والمعدات، -3 هي نتاج اجتماعي لا توجد بمعزل عن محيطها.

**- تكنولوجيا الاتصال :**

تمثل تكنولوجيا الاتصال ومنجزاتها المستمرة وسريعة التطور وما يتصل بها من تكنولوجيا المعلومات، ثورة حقيقية انطلقت مع تصاعد الإحساس بأن الواقع الاتصالى القائم، لم يعد كافيا للوفاء بمستلزمات القرن الواحد والعشرين.

وإذا رجعنا إلى الكلام عن تحديد **مفهوم "تكنولوجيا الاتصال"**، فإننا نجده يشمل مجموع وسائل ومعدات تكنولوجيا الاتصال.
وعندما نقول تكنولوجيا الاتصال فإنما نعني تبعا لـ"عبد المجيد شكري (1996، 11) "مجمل المعارف والخبرات المتراكمة والمتاحة، والأدوات والوسائل المادية والتنظيمية والإدارية المستخدمة في جمع المعلومات ومعالجتها وإنتاجها وتخزينها واسترجاعها ونشرها وتبادلها، أي توصيلها إلى الأفراد والمجتمعات".

**- التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال :**

وبتخصيصنا لمفهوم تكنولوجيا الإعلام والاتصال وربطه بمصطلح الجديدة، تبعا لطبيعة هذا العمل، نصبح أمام موضوع اتصالي معلوماتي أكثر أهمية. فهو يفرض نفسه بقوة في مستهل القرن الواحد والعشرين، الذي يزخر بمتغيرات تمثل ثورة معلوماتية جديدة في عصر جديد معولم الأبعاد وقوامه أدوات وتقنيات اتصالية جديدة يتميز بها.
إن تكنولوجيا الإعلام والاتصال الجديدة (NTIC) بمعناها الواسع هي كل التكنولوجيات المتعلقة بعمليات المعالجة، الإنتاج وتبادل المعلومات مهما كان شكلها : من الهاتف الثابت والمحمول إلى الانترنيت مرورا بالبطاقات الإلكترونية وأنظمة المحاضرات السمعية البصرية عن بعد.
إنها تجمع بين ثلاثة مجالات تقنية : الاتصالات عن بعد - السمعي البصري - الإعلام الآلي، بحيث تنتج عن تقاطعها المعلوماتية عن بعد (Télématique) وعن إدماجها وسائل الاتصال المتعددة (Multimédia).

- مع الإشارة إلى أنه يعبر عن هذه التكنولوجيات بمصطلحات اختزالية مختلفة (TIC, NTIC, NTC, NTI) كما أنها تعتبر عند البعض تقنية أكثر منها تكنولوجيا وقد نتج هذا التجاوز في نظرهم عن الترجمة من الإنجليزية التي تجمع بين كلمتي التقنية والتكنولوجيا في كلمة واحدة (Technology) وذلك بخلاف اللغة الفرنسية مثلا.

**- خصائص التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال :**

يمكن حصر خصائصها فيما يأتي :

- تجمع –كما مر معنا– بين ثلاثة مجالات تقنية : الاتصالات عن بعد، السمعي البصري، الإعلام الآلي،
- عملت على زوال الحدود بين الكتابة والصوت والصورة،
- جعلت المعلومات بمختلف أشكالها (اللفظية، الرمزية...) في متناول الجميع (بدرجات متفاوتة طبعا)،
- تتميز بالسرعة في معالجة المعلومات وبذاكرة أنظمة معالجة المعلومات ذات قدرات تخزينية هائلة،
- تتميز بإمكانية التفاعل مع أنظمة معالجة المعلومات بلغة متداولة،
- لقد أدى استعمالها إلى انخفاض تكلفة استقبال ومعالجة وتخزين وإرسال المعلومات.

**- استعمالات التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال**

إن إدماج الـ"NTIC" في حياتنا اليومية أصبح أمرا عاديا، لذلك فإن وصفها وتحليلها وتفسيرها يتطلب مقاربات منهجية خاصة تحتّم على

المعنيين بالأمر التجرد نوعا ما من واقعهم المعيش حتى يتمكنوا من ملامسة العلاقة بين هذه التكنولوجيات والمجتمع، ملامسة موضوعية وبعيدة نوعا ما عن تفاعلاتهم الشخصية معها.

أما فيما يخص مجالات استعمالاتها، فالملاحظ أن معظم العناصر المرتبطة بمجتمع المعلومات والتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال تتعلق بعالم الشغل ونظام العمل وخاصة منه تحديد الأهداف وتنظيم الأنشطة، وكذا الحياة اليومية.

1- استعملت الـ (NTIC) في العلاقات التجارية فجعلت المنتوج أو السلعة عبارة عن قيمة أو صورة قبل أن تكون سلعة، والتي أصبحت لا قيمة لها قبل أن يعبّر عنها في المجال الاتصالي. ومن هنا جاءت أهمية المعلومات وتكنولوجياتها الجديدة.

2- لقد أدت إلى ظهور نمط جديد من تنظيم المؤسسات يتمثل في الشبكة. هذه المؤسسات الشبكية تتميز باندماج تسييرها وبتفككها فيزيقيا حيث جعلت التنظيم لا مركزيا وهياكله مسطحة تُيسّر التواصل التفاعلي.

3- كما أدت إلى تغييرات في حجم وطبيعة المهام المرتبطة بضرورة التكيف مع التكنولوجيات الجديدة. مما دفع إلى اتخاذ إجراءات محفزة على التكوين المستمر والمتخصص.

4- فتح تيسير الوصول إلى بنوك المعلومات آفاقا اتصالية جديدة وأدى إلى زيادة الإنتاجية وزيادة قدرة المؤسسات على تسيير المسائل المهمة وذلك بجعل المعلومات في متناول جميع الفاعلين، فزادت قدرتها على المنافسة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الملاحظ على العموم أن أهم الزيادات في الإنتاجية والمنافسة اعتمدت ليس على أتمته مجموع

العمليات الإنتاجية التي باشرتها منذ 1970 ولكن على زيادة إنتاجية المهام الإدارية، التسييرية، اللوجيستية (الامدادية)، المالية والمكتبية والتي يسرتها الحواسيب والمعلوماتية اللامركزية وقد تعمقت هذه الظاهرة عشرية 1990 حيث أصبحت الاستثمارات في الـ(NTIC) مربحة.

5- كما لا يمكن أن نتجاهل اليوم أن الـ (NTIC) تمثل 8 % من الناتج الخام المحلي (PIB) الأمريكي مثلا وتساهم منذ 1995 بأكثر من 30 % في نمو هذا الناتج. كما أن أهمية هذه التكنولوجيات أدت برجال الأعمال إلى إدراج المؤشر المعلوماتي كمؤشر خاص في الأسواق المالية (مؤشر: Nasdaq في بورصة نيويوك) ليستقل بذلك عن المؤشرات الاقتصادية التقليدية الأخرى : ..Dow Jones, FTSE, DAX, CAC 40, IBEX.

## 2- التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال والظاهرة الحضرية

قبل الكلام عن هذه العلاقة تجدر الإشارة بإيجاز إلى **مفهوم "المدينة"** في أبسط صوره وتبعا للنظرية العامة للشبكات : إنها عبارة عن عقدة من تبادلات السلع والمعلومات في فضاء محدود يتكون من مجموعة من السكنات، عادة ما يتوسطها سوق وساحة عامة (عند الإغريق : Agora) [1] أو مسجد عن المسلمين. فالمدينة قوامها إذن تيسير تبادل السلع والمعلومات وذلك بتركيزها في فضاء محدود ربحا

1. Communication au colloque : *The Impacts of Information Technologies On Urban Form And Life,* Monte Verità, Ascona, Novembre 1995, 5.

للوقت وتقليصا للمسافات. ولتفعيل ذلك اجتهد الإنسان في مقاومة عنصري الزمن والمسافة فكانت الاختراعات التقنية محسنة لوظائف المدينة وذلك قبل أن تصبح أو تكاد تكون لاغية لها.

- **التطورات التقنية وفضاءات المدينة** : لقد اهتم مؤرخو المدن منذ القديم بدور التطورات التقنية المختلفة في نمو التجمعات السكانية الحضرية. ويمكن أن نذكر، بهذا الصدد وعلى سبيل المثال، أن اختراع الورق من طرف الصينيين وتطوير صناعته من طرف المسلمين أدى إلى تحولات جذرية في المجالات الثقافية والاقتصادية والحضرية فسمح بإنشاء مكتبات عامة وبتطوير بعض التجمعات الحضرية حول دور التعليم والعبادة والمصانع وبتوسعة بعضها الآخر لأن الكتابة يسرت إدارتها ووسعت نشاطها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي...

وفي هذا السياق يمكن ذكر مثلا، أن تطور المدفعية في القرون الوسطى أبطل مفعول الحصون الحجرية وأدى إلى إزالتها مما سمح بتوسع النسيج الحضري، كما سمح اختراع الآلة البخارية بتطور الصناعة وبناء مناطق صناعية ومدن منجمية لتموين هذه الآلات، تلاه تطور الصناعات النفطية وما نتج عنه من تطور وسائل النقل وظهور ما يعرف بالأطراف الحضرية (الحواضر : banlieue, périphérie...). أما ذيوع استعمال الهاتف فقد أدى إلى لا مركزية معتبرة للوظائف الحضرية الضابطة والتفاعلية وإلى التوطئة لإمكانية العمل عن بعد واختفاء الكثير من وظائف المدينة وراء إنجازات الهواتف اللاسلكية والألياف البصرية والموجات الكهرومغناطيسية والأقمار الصناعية... [1].

1. Communication au colloque : *The Impacts of Information Technologies On Urban Form And Life*, Monte Verità, Ascona, Novembre 1995, 1-2.

هذه بعض الأمثلة عن مساهمة التطورات التقنية في تطور الظاهرة الحضرية. ونحن نعتقد أن للتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال دورا لا يقل أهمية عنها من حيث تأثيره على شكل ومضمون الفضاءات الحضرية المعاصرة. فلقد أصبح الفضاء المعايش يختلف باختلاف الوسائط التقنية الفيزيقية أو المعلوماتية (وسائل النقل الحديثة، الهاتف، الراديو، التلفزيون، الأقمار الصناعية، الانترنت...) التي ندركها بها، كما يختلف باختلاف الممارسات الاجتماعية الخاصة بسكان العمارة، الحي أو المدينة. فمثلا، وحسب "ب. سترلينغ" (STERLING, Bruce : 2004)، لم يكن من الممكن بناء ناطحات السحاب، ليس فيزيقيا بل وظيفيا، حيث أنه لا يمكن تصور تسيير العدد الهائل من الرسل الضروري لنقل الرسائل من طابق إلى آخر، فناطحات السحاب ذات عشرات الطوابق غير عملية كفضاء مهني بل وسكني أيضا دون هاتف ولا فاكس ولا إنترنت... لأن التواصل الاجتماعي سيكون حينها مرهقا جدا.

كما أنه من المعروف أن هذه "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" (NTIC)، أصبحت تلغي الفضاء الجغرافي وتكاد تلغي الزمن (فهي تعمل بسرعة الضوء بدلا من السرعة العادية)، حيث أدخلتنا في عالم خيالي لامادي وحولت الكثير من نشاطاتنا المهنية من فضاءات جغرافية فيزيقية إلى فضاءات اصطناعية مكونة من حواسيب تجمع بينها أسلاك (أو ألياف) وأقمار صناعية ولا تحدها إلا سرعة الضوء، فنقلتنا بذلك من عالم الذرات (atomes) إلى عالم البايتات (bytes)، ومن عالم "الجزئي" (micro) إلى عالم "النانو" (nano) حيث تزداد أهمية المعلومة على حساب دعامتها المادية.

لقد عملت الشبكات الرقمية المحركة لها على تشكيل فضاءات اصطناعية للتفاعل الفكري والمادي (سلع، خدمات، معارف)، والتي مكنتها خصائصها الرقمية من تجاوز الفضاءات الواقعية للمدينة (المكتبة، السوق، المؤسسات الخدمية...) وتشكيل مدينة اصطناعية- افتراضية اتخذت عدة أسماء: مدينة المدن، المدينة الشبكية، المدينة الشاملة (العالمية) أو المدينة الوسيلية (Cité médiate)... هذه المدينة لا يمكن تمثيلها خرائطيا ببعدين أو ثلاثة أبعاد كالفضاءات الفيزيقية بل بأنموذج شبكي هلامي الأبعاد وذي حدود غير ثابتة.

إن المدن والعواصم الكبرى التي عهدناها إلى حد الآن هي عبارة عن مجمعات وظيفية شيدت بغية لمّ شمل مجموعة من السكان على بقعة أرض محدودة بهدف تقليص زمن وتكلفة خدماتهم وتفاعلاتهم المادية والفكرية والاجتماعية: وسائل النقل الجماعية، الخدمات الصحية العمومية، الخدمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمعلوماتية المشتركة. إلا أن الفضاء الاصطناعي - الافتراضي أصبح يعمل اليوم على تجريد المدينة من وظيفتها كفضاء لتبادل السلع والخدمات والمعلومات، وذلك بتوفيره التعليم عن بعد، العمليات المصرفية عن بعد، التسوق عن بعد، العمل عن بعد، التزاور عن بعد، الخ. مما ألغى ضرورة التجمع أو التمركز فوق فضاء حضري محدود جغرافيا لتفعيل هذه الوظائف وتيسير العمليات الاجتماعية. وقد استوجب ذلك ليس فقط ضرورة تكيف المؤسسات الخدمية والتجارية، العامة والخاصة، مع الواقع الافتراضي الجديد بإعادة هيكلتها محليا لتفعيل وظيفتها عالميا، بل ضرورة تكيف كل الفضاء الحضري مع التصورات الجديدة

الناتجة عن شبكة "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" (NTIC).

وهكذا يجب إعادة التفكير في كيفيات التهيئة العمرانية وفي طرق تسيير الزمن الاجتماعي الحضري وفقا لهذا المعطى الجديد، وذلك بغية تيسير تعاطي السكان مع عمرانهم "المخفف" (فيزيقيا) فيطورون أشكالا جديدة من التنظيمات الاجتماعية الفضائية على المستوى المحلي وفق واقعهم الحضري الجديد، الذي لم يعد يعتبر مركزا لمحيط ريفي أو صناعي بل أصبح محيطا جزئيا لمركز افتراضي مصطنع شامل. بل هناك من يرى (GALLAND, Blaise : 1995) بأن هذا التحول يؤدي إلى اندماج كلي في فضاء شبكي شامل بلا مركز ولا محيط، أو في "مجتمع أرخبيلي" حسب تعبير "ج. فيار" (VIARD, Jean, 1994).

ونتيجة لذلك ضعفت سلطة المؤسسات السياسية المحلية البلدية والولائية وتضاءلت مداخلها الاقتصادية بسبب فقدانها السيطرة على حركة السلع والخدمات والمعلومات.

### - مجالات تأثير "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" (NTIC)

يمكن حصر مجالات تأثير "التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال" في الوظائف المتعلقة بمختلف فضاءات المدينة : العمومية، نصف العمومية، الخاصة، المحمية، السرية... ولكننا سنخص هنا بالذكر منها ثلاثة فضاءات : الفضاءات السكنية الشخصية، الفضاءات العمومية والفضاءات المهنية.

- **الفضاءات السكنية الشخصية :**

إن تطور الشبكات التقنية وخاصة تلك المتعلقة بنقل ومعالجة المعلومات أدى تدريجيا إلى تحولات جذرية في العلاقات بين الشبكات الاجتماعية وفضاءاتها الواقعية المرجعية، حيث أصبح لمقر السكن أو الفضاء الحضري الأولي دورا ثانويا في تحديد طبيعة ونمط الشبكات الاجتماعية. مما أدى إلى بعض الانحرافات الاجتماعية الملازمة للروح الانعزالية والانفرادية الناتجة عن الانسلاخ عن المجموعات التقليدية : الأسرية، الجوارية، المسجدية... والاندماج في شبكات اجتماعية أكثر مرونة وتنوع وتعقيد واتساع وانفتاح وتصنع وافتراضية، وأقل انضباط وبساطة وحميمية ويقين. كما أدت هذه الشبكات إلى بعض الأمراض الفيزيقية الناتجة عن قلة حركة أو كثرة استعمال بعض أجزاء جسم الإنسان (كثرة الجلوس والإفراط في استعمال بعض أطراف اليد...).

تشكل هذه الشبكات مدينة اصطناعية - افتراضية يطلق على سكانها أو روادها في الثقافة المعلوماتية اسم : "المواشبكيين" ((Netizens (GRIZE, François : 1994)) قياسا على المواطنين (Citizens)، لأن موطنهم المرجعي تحوّل إلى شبكة معلوماتية. مئات الملايين من المواشبكيين : شديدو الاختلاف ومتفاوتو الإمكانات، منهم الأخيار (النافعون بجميع أصنافهم) ومنهم الأشرار (المتطفلون، المعتدون على الخصوصيات، مشيعو الفواحش...) على غرار ما هو موجود في الفضاءات الواقعية ولكن بحصانة أقل (عالم سريع البناء وسريع الهدم) ودون تمييز مظهري (النوع، اللباس، السن...) لمتعامليه "عن بعد".

ومع ذلك تبقى الفضاءات السكنية والشخصية في بعدها الحضري أقل الفضاءات تأثرا بـ" التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال "، رغم ما قد يدخل عليها من تعديلات معمارية في المساكن استجابة لتوظيف الأسلاك والألياف والوسائط المتعددة وغير الورقية (هوائيات خاصة، قاعة متعددة الوسائط: ملتيميديا، مكتبات شخصية إلكترونية ذات حاويات لأشرطة وأقراص متناهية في الصغر وضخمة السعة، قاعات استقبال فردية بدلا من واحدة عائلية...). فالإنسان الساكن في هذه الفضاءات العائلية له عالمه الخاص وشبكة علاقاته الاجتماعية الخاصة، وجسمه يعيق ميزتي العالم الافتراضي لهذه التكنولوجيات: زيادة السرعة وتقليص المسافة. فهو يمثل تقريبا الحدود الوحيدة غير القابلة للضغط أو الاختزال رغم الإمكانات الهائلة لهذه التكنولوجيات المعلوماتية الجديدة: فما يتم في أفلام الخيال من نقل للأجسام الحية بسرعة الضوء لم تحققه لحد الآن: فتقليد "الإسراء والمعراج" النبويين ليس في متناول البشر بعد. ولذلك لم تهتم الثقافة المعلوماتية بجسم الإنسان كثيرا باستثناء كلامها عن إمكاناته التحسسية وعن تكييف بعض الموصلات المعلوماتية التي تستعمل كامتدادات لحواسنا بغية تيسير ولوجنا عالمها الافتراضي. وولوجنا هذا يتطلب منا مغادرة أجسامنا التي يستحيل إدخالها إلى الشاشة رغم تزويدها بقفازات معلوماتية وخوذات بصرية وملبسات ذكية. ولكن هذا الفصل يبقى افتراضيا-فكريا وغير حدي ولا فعليا، لأن الكائن الحي كل متكامل بجسمه وعقله وروحه. ولذلك فقد يكون لهذا الفصل المتكرر آثار نفسية سلبية.

كما أن العالم الافتراضي لهذه التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال لم يستطع حاليا تجاوز الحاجات الأساسية للإنسان ككائن بيولوجي، مثل: التنفس والشرب والأكل والنوم (بأحلامه الحقيقية) والتكاثر والوقاية من الحر أو البرد... والتي هي ضرورية حتى لاستمرارية التواصل مع هذا العالم؛ ولا حاجاته الفضائية الواقعية الضرورية لذلك (المساكن)؛ ولا حاجاته النفسية الاجتماعية التي لن تشبعها إلا العلاقات الاجتماعية الحميمية والدفء النفسي – الاجتماعي الناتج عن التواصل الشخصي في البيت الواحد، العمارة المشتركة، الحي الجواري، المسجد الجامع، الحديقة المريحة وحتى الملعب الصاخب... بعيدا عن برودة الفضاء الافتراضي، بل فوق أرض واقعية تهيأ عمرانيا تبعا لاحتياجات الإنسان البيولوجية، الاجتماعية والنفسية بل والروحية أيضا: السكن، التعبد، التغذية، التنقل، التجمع، ممارسة الرياضة، التمتع المحسوس...

فلكل شيء حدوده، ومن أهم حدود "تقليص الزمن وإلغاء الفضاء الفيزيقي" الفضاءات الحضرية المتكيفة مع جسم الإنسان باحتياجاته البيولوجية، الاجتماعية، النفسية والروحية.

**- الفضاءات العمومية :**

تعتبر الفضاءات العمومية، بخلاف الفضاءات السكنية الشخصية، أكثر الفضاءات الحضرية تأثرا بالتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، ذلك لأن العديد من البنايات العمومية المؤدية لوظيفة تبادل السلع والخدمات والمعلومات (مباني البريد والمواصلات، المكتبة، الإدارات المحلية، البنوك، المساجد، المدارس والجامعات،

المتاحف، الأسواق...)، والتي هي ذات مظهر بارز في النسيج العمراني للمدينة، أصبحت مهددة – في الدول الغربية خاصة – من طرف الفضاءات الاصطناعية – الافتراضية بطرقها السريعة للمعلومات وتواصلها عن بعد.

فمراكز البريد والمواصلات مهددة بالزوال كواقع حضري ومعها صناديق البريد ورسائله (باستثناء الطرود) وسُعاته. والشيء نفسه يمكن قوله عن الجامعات (بسبب التعليم عن بعد) والمكتبات (بسبب المكتبات الإلكترونية) والبنوك (بسبب التعاملات الإلكترونية) والمتاحف (بسبب المتاحف الافتراضية) وأكشاك الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون (بسبب الصحافة الإلكترونية، والبرامج الإذاعية والسمعية البصرية المشخصنة إلكترونيا) والمحلات التجارية والأسواق (بسبب تعويضها بمخازن تموينية تحت الطلب إلكترونيا)... وحتى أماكن العبادة – كفضاء حضري جامع –، والتي تبدو في منأى من ذلك لأن تفاعل روادها روحي أصلا، قد تتضرر وظائفها الاجتماعية لقلة روادها نتيجة قلة حركية سكان الحضر وإدمانهم على التكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال (فالأذان يبرمج إلكترونيا وإمام – الجمعة والتراويح خاصة – يؤتم به عبر واسطة إلكترونية) وما يترتب عن ذلك من روح انعزالية وانفرادية ونشاط اجتماعي عن بعد أي دون الحاجة إلى مرجعية فضائية-مكانية.

فالكل ينتقل أو يكاد إلى الفضاء العمومي الجديد الذي أصبح ذي امتداد عالمي مهندسوه معلوماتيون وليسوا معماريين، ودعامته

الأساسية الكهرباء وليس الورق، وأهم متاعمليه رحّل يعيشون في واقع اصطناعي ولا يَحطّون رحالهم إلا عند واحات الراحة والاستجمام... فيساهمون في حماية البيئة (هوائها وأشجارها...) بتقليص النفايات الغازية وقطع الأشجار نتيجة قلة استعمالهم لوسائل النقل وللورق.

- **الفضاءات المهنية :**

على غرار الفضاءات العمومية تتأثر الفضاءات المهنية تأثرا واضحا بالتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، فعالم الشغل كان منذ القدم حساسا جدا للتطورات التقنية ولا زال كذلك إن لم نقل بنسبة أكبر. فلقد كان لأدوات القطع والحفر والنقل أثر بالغ في شكل وكيفية تنظيم عالم الشغل في علاقته بالفضاءات العمرانية. كما كان لتقنيات التركيب والمكننة والأتمتة أثر مشابه. ومع التطورات الأخيرة في مجال الإلكترونيات والمعلوماتية وإدخال "الإنسان الآلي" إلى المصانع، تغيرت طبيعة العمل ومعها فضاءاته ليس فقط في قطاعي الزراعة والصناعة بل وفي قطاع الخدمات أيضا.

فعالم الشغل بدأ يستغني تدريجا عن مادة الورق وفضاء المكاتب وعناء التنقل إلى أماكن العمل ليستبدلها بالعمل عن بعد والتعامل أكثر فأكثر مع مادة رقمية افتراضية وحدتها الأولية مجردة : " أوكتات " (octets) أو " بايتات " (bytes)... وذلك بعيدا عن ضجيج الآلات وصرير الأقلام وخشخشة الأوراق وضيق المكاتب وحتى عن موضوع عمله : الطائرة، مركز توليد الطاقة، مستشفى... وزملائه الذين أصبح يتواصل معهم عن بعد : بالفاكس، الهاتف المرئي، المحاضرة عن بعد...

ويمكن أن نجمل الكلام عن أبعاد التغيرات التي قد تحدث في عالم الشغل في الخصائص الآتية: العمل والنشاط عن بعد دون حاجة إلى مرجعية فضائية، الحضور السمعي البصري للمتعاملين، تقليص الزمن والفضاء أو إلغاء هذا الأخير... وبالطبع يتسبب ذلك في تكييف الفضاء الحضري والمعماري لأماكن الشغل وتجهيزها معلوماتيا، وظهور قرى مهنية إلكترونية متخصصة على شاكلة (Silicon valley) ومن الأفضل قريبة من المطارات والأماكن الترفيهية أو الطبيعية الخلابة... تضمن سرعة التنقل والحاجة إلى الراحة والتسلية.

**الخاتمة :**

إن الفضاءات الحضرية المختلفة لا تبدو للعيان متأثرة بوضوح بالتكنولوجيات الجديدة للإعلام والاتصال، إذا استثنينا الظهور المتزايد لكاميرات المراقبة في الساحات العمومية وعدد محدود من نماذج الإنسان الآلي والآلات الإلكترونية في المنازل والشوارع وأماكن العمل، ذلك لأن أولا، التغييرات ذات الأبعاد المعمارية لا زالت في بدايتها، وثانيا لأن مجال التغيير أصاب أساسا النظرة إلى الفضاءات الحضرية وكيفيات استعمالها أكثر من شكل وكيفية هيكلتها، حيث بدأت تنتقل وظائفها إلى الفضاء الاصطناعي - الافتراضي. وهذا الأخير لا يرى بالعين بل يتصور ولذلك فهو أقل حضورا.

ومع ذلك، فإن كل ما ذكر يؤدي بنا إلى التساؤل عن طبيعة عمل المعماريين المدنيين وعن الهدف من مشاريعهم وإنجازاتهم المستقبلية. لقد تخلصت المدينة أو تكاد من المحددات الفضائية التي كانت توجه

تصميماتهم المعمارية، حيث لم تعد هناك ضرورة لتصورات حضرية كعملية خطية وكمية مؤداها تركيز العمران لربح الفضاء واختزال الزمن وبالتالي تفعيل التبادلات السلعية والخدمية والمعلوماتية. فشبكة هذه التفاعلات الاجتماعية لم تعد لها مرجعية مكانية ولم تعد منمطة مسبقا بل لقد أصبح لكل متعامل القدرة على تشكيل وإعادة تشكيل شبكته الخاصة ومن أي مكان تواجد فيه: في المدينة، القرية، الخيمة، على الطائرة أو الباخرة أو في أعماق البحار... ولذلك حق للبعض التساؤل عن جدوى ومستقبل المدينة المجردة من وظيفتها الأساسية : تبادل السلع والخدمات والمعلومات... وبالتالي عن مركزيتها الاجتماعية أو عما كان يميزها عن القرية أصلا. ففضاء المدينة الجديد أصبح يتسع تدريجيا ليشمل تقريبا كل فضاءات المجتمع. وبالتالي أصبحنا نعيش في مدينة عالمية " باردة " (علائقيا) لا يجمعها بالقرية العالمية التي تنبأ بها " ماكلوهان " في السبعينيات سوى شمولية التواصل.

كما أن لدينا عليها تحفظات أخرى ذات طابع اجتماعي- اقتصادي وأخلاقي: فبعض ما طرح ينم عن أفكار خيالية وبعيدة عن الواقع، فقرابة عشر البشرية فقط ينتج ويعالج المعلومات، أي أن أعشار العالم يستمع للنشاط الإلكتروني المكثف لحوالي خمسة عشرة دولة فقط، كما أنه إذا كان البعض منا يشارك بالتصويت في رسم سياسة بلده وحتى في تحديد سياسة تهيئة فضاءاته الحضرية عمرانيا، فإننا جميعا (باستثناء المبرمجين) لا نساهم في اختيار البرامج المعلوماتية العمومية التي تشكل وتنمط وتكيف جزء كبيرا من مظاهر حياتنا اليومية ومكنوناتها الحضرية وغير الحضرية.

## المراجع :

1- عبد المجيد شكري : تكنولوجيا الاتصال، مصر، دار الفكر العربي، 1996.

## Bibliographie

1- Breton, Ph., Proulx, S. : L'explosion de la communication à l'aube du XXI[ème] siècle, Paris, La découverte, 2002.
2- GALLAND, Blaise : La ville artificielle, ou les réalités du virtuel, Genève, Georg, 1995.
3- GRIZE, François : Communication des informations, des idées et des personnes, Actes du Deuxième Colloque Transfrontalier, Université de Lausanne, 1994.
4- Meziane, Med. : La communication et les nouvelles techniques de l'information, Alger, El Ayam, 2001 ?
5- Pateyron, E-A, Salmon Robert : Les nouvelles technologies de l'information et l'entreprise, économica, Paris, 1996.
6- STERLING, Bruce : "The Virtual City", http://riceinfo.rice.edu/projects/RDA/ VC/ Sterling/Sterling_VirtualCity, 2004.
7- VIARD, Jean, La société d'archipel. Ou les territoires du village global, Les Éditions de l'Aube, 1994.

- Revue : Technologies de l'information et société (n03, 1994)
- Revue : Hermes, Journal of communication (n03, 1996).
- Revue : Manière de voir, N° 46, Juillet- Août 1993 : Révolution dans la communication.

Webographie
www.oneword.org/euforic/eadi/97marfr.htm (Marshal, J. 1997. NTIC)
www.tech-quimper.fr
www.cedric.cnam.fr/ABU

# التحضر في الجزائر
# ( الواقع والتحديات )

د . رماش صبرينة
مخبر الابحاث والدراسات حول حركات الهجرة

التحضر عملية معتمدة وهي ناتجة عن تركز للسكان والأنشطة غير الزراعية في بيئة حضرية مختلفة من حيث الشكل و الحجم أو نتيجة لتفاعل العديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئة الأساسية كما يصاحب هذه العملية ارتفاع في معدل النمو الحضري الناتج عن الزيادة المرتفعة بين سكان المدن من جهة واستمرار الهجرة الريفية من جهة أخرى و هذا ما أدى إلى تهور العديد من المشاكل في الوسط الحضري ومن هنا فإنه يمكننا طرح التساؤل التالي :

- فيما تتمثل ظاهرة التحضر وكيف تحدث وماهي أهم إنعكاساتها ؟

## أولا- ماهية التحضر :

### 1- تعريف التحضر :

"كلمة إنجليزية مشتقة من الكلمة اللاتينية Urbs وهي إصطلاح كان الرومان يستخدمونه للدلالة على المدينة وبالأخص روما وتعني كلمة Urbanisation عملية من عمليات التغير التي بواسطتها إنتقال سكان البادية إلى المدن أو تحول البادية و المناطق الريفية إلى مدينة (مناطق حضرية) ، وعادة ما تؤثر هذه العملية على التركيبة الإجتماعية لأفراد المجتمع. "[1]

تعرف عملية التحضر بأنها عملية تركيز سكاني يتم بوسيلتين :

- زيادة عدد أماكن التجمع السكاني.
- نمو حجم التجمعات السكانية.

و يعرف أيضا لأغراض إحصائية وتحليلية بأنه مجموعة من السكان المقيمة في تجمعات بشرية تقع في تصنيف المدن معتمدا على عنصرين أساسيين يتضمنهما مفهوم التحضر :

* تعدد محاور التركيز.

* زيادة حجم كثافة البشرية الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكان في المدن، ولقد جمع علماء الاجتماع والهيئة الإنسانية أن هذا التعريف البسيط هو أكثر وضوحا وأبعدها عن الالتباس لأنه يفرق بين عملية التحضر نفسها وما قد يصاحب من آثار نسبية أو ظروف تبعية.

1. بشير التجاني : التحضر والتهيئة العمرانية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص. 16.

-2 **مفهوم الحضرية أم المدينة : Urbanisme:**

وتشير إلى الطريقة المميزة لحياة أهل المدن الذين يتبعون عادة نمطا أو أسلوبا في حياتهم لذلك على الوافدين من الأرياف أن يجعلوا سلوكهم مطابقا لسلوك سكان الحضر.

-3 **المفهوم السيوسولوجي لمصطلح التحضر** : لقد ذكر جيوديبريز G. Breesé تعريفا للتحضر قال فيه إن التحضر عملية تغير كمي وكيفي معا تؤدي إلى تحولات كثيرة في خصائص وسمات وظائف المجمعات المحلية (المدن و البلدان)، كما يرى أن فهم تلك العملية يستدعي ضرورة عقد المقارنات المختلفة في الدول المختلفة أو بين المراكز الحضرية المختلفة في البلد الواحد، ويعرف التحضر على أنه عملية تركز سكاني تتم بوسيلتين إما زيادة عدد أماكن التجمع السكاني، أو نمو حجم التجمعات السكانية.

" ويرى اموس هاولي Amos H أن عملية التحضر تبدو من أكثر جوانبها وضوحا و كأنها عملية إطار سكاني متزايد التنظيم و فوق ذلك فهي تشمل نوعا من العرقات المتبادلة بين المكونات البنائية وكذلك الإطار المكاني والتي تظهر بوضوح عند حدوث التعغير في أي منها وما تتبعه من تأثيرات و متغيرات مقابلة في الوحدات الأخرى و *** يتبع التغير الذي يصيب أحد تلك العناصر البنائية تغيرات في العناصر الأخرى فإن إطراء النمو يتوقف بما يؤثر بالتالي التغير العام في المجتمع. "[1]

أما لورين نلسون Nilson فيذكر في كتابه القرية الموعون أن كلمة التحضر مرادف لكلمة العلمانية التي تمتاز بالتقدم بمعدلات سريعة

1. محمد السيد غلاب : جغرافيا الحضر، مكتبة الاشعاع، مصر، 1997، ص. 34.

و وجود وسائل اتصال حديثة تربط ما بين المناطق المختلفة في البلد الواحد و بينه و بين المناطق المختلفة في العالم وانتشار الخصائص الحضرية في المناطق الريفية وانخفاض عدد المزارعين مع اتساع حجم المـزارع و سيادة نمط اللاشخصي في العلاقات بين الناس وتضاؤل المساعدات المتبادلة بينهم مع ظهور التقاعد كأساس يربط بين الأفـراد في معاملاتهم وتظهر المؤسسات المكلفة تلبية حاجات الناس في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والترفيهية مع وجود الأنماط.

" وفي تعريف آخر للتحضر بأنه عملية من عمليات التغير الاجتماعي تتم عن طريق انتقال أهل البادية والريف إلى المدينة و إقامتهم بمجتمعها المحلي، و من ثم يكسبون تدريجيا أنماط التحضر إذ تم لهم امتصاص الأنماط الحضرية حيث قيل أنهم تكيفوا حضريا أو بمعنى آخر تحضروا أي تحولت أساليب معيشتهم إلى طريقة أهل المدن وقد يحدث التحضر بطريقة مخالفة لما تقدم كأن تغزو الأساليب الحضرية الريف و قراه بأية صورة من الصور التي ينتج عنها امتصاص لقيم و أنماط التحضر و ترى ورث سمز R. Smis أن التحضر عملية تغير اجتماعية معقدة تؤثر في البلاد العامة و تمتاز بخلق المراكز الحضرية الواسعة بالهجرة أو الإقامة المؤقتة. "[1]

1. محمد السيد غلاب : نفس المرجع، ص. 36.

## ثانيا- شروطه والأسباب الفعلية للتحضر :

### 1 شروطــه :[1]

من خلال دراستنا لظاهرة التحضر يمكننا أن نستخلص أن لهذه الظاهرة 08 شروط تتمثل فيما يلي :

-1 تزايد النمو الحضري بصورة مستمرة

-2 ارتفاع معدلات النمو الحضري وتفوقها على إجمالي السكان.

-3 ارتفاع عدد المدن الصغيرة والمتوسطة لمواجهة التركز الحضري في المدن الكبرى.

-4 النمو الرسيع للمدن المتروبولية.

-5 عكس الواقع السياسي و التاريخي و الإجتماعي للبلاد.

-6 إستقطاب أهم القوى الدافعة في تطور السكان.

### 2 الأسبـاب الفعلية للتحضر :

تسيطر على العالم الآن أنماط حديثة من الحياة الحضرية والإقامة والعمل في المدن التي تتميز بتكوين خاص يتناسب مع مستجدات الحياة وبخاصة فيما يتعلق بالتقدم التكنولوجي وسهولة عمليات الاتصال والتواصل على نطاق واسع و بشكل غير مسبوق وبهذا يتأثر سير الحياة والعلاقات باتجاهات العولمة، التي سوف تتيح الفرصة لانتشار الأفكار

1. Philipe Panorai : élement d'analyse urbaine, Paris, 2000, pp. 16-18.

المتحررة إلى جانب تدفق السلع والخدمات و رؤوس الأموال التي تنعكس بشكل أو بآخر على المناطق الريفية مما يساعد على تضييق الفجوة بين الريف و الحضر.

وبذلك يمكننا القول أن مستقبل المجتمع الإنساني هو بالضرورة مستقبل حضري وقد بدأت بوادر هذا التغيير تظهر بالفعل في العالم المتقدم وتثير اهتمام بعض المنظمات الدولية حول مدن المستقبل ونوعية الحياة فيها و لقد إنعقد في هذا الصدد العديد من المؤتمرات التي تمحورت كلها حول مد طول التحضر في مختلف المجتمعات والثقافات ونوع العلاقات والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأساليب الثقافية السائدة في المدن في الوقت الحالي، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقات والتنظيمات والأساليب في مدن الغد على مستوى العالم ككل وليس فقط على مستوى الدول الغربية و المجتمعات الصناعية الحديثة، وكذلك البحث عن أساليب تنوع و اختلاف هذه التنظيمات في الوقت الحالي، وما قد يطرأ عليها من تغيرات في المستقبل وكيف يمكن الاستفادة منها لإثراء الحياة في المجتمع و بخاصة فيما يتعلق بتحول مدن المستقبل إلى مناطق ومراكز لإنتاج المعرفة و تصديرها.

## ثالثا- كيفية حدوث عملية التحضر : (حالة الجزائر) :

نظرا لأن عملية التحضر أوسع من أن تدرس في إطار شامل فإننا قمنا بدراسة هذه الظاهرة بصفة خاصة في الجزائر.

## 1- عوامل التحضر في الجزائر : [1]

إن العوامل التي كان لها دور أساسي في عملية التحضر في الجزائر يمكن الحديث عنها كما يلي :

### أ- ارتفاع معدلات النمو الديمغرافي :

يعتبر من أهم العوامل التي كان لها دور هام في عملية التحضر ببلادنا و هذا راجع لارتفاع الهجرة الريفية نحو المدن التي أدّت إلى ارتفاع الكثافة السكانية بها وبالتالي ارتفاع في معدلات النمو الحضري، كما يساهم أيضا عنصر الزيادة الطبيعي بين سكان المدن في زيادة المعدل السنوي للنمو الحضري.

كل هذه العوامل جعلت المجتمعات الحضرية غير قادرة على استيعاب سكانها و تلبية حاجياتهم و يمكننا القول أن هذا راجع لانعدام التوازن بين معدلات نمو سكان الحضر و معدلات تطور فرص الشغل والخدمات والتجهيزات و التأخر في إنجاز المشاريع السكنية في الحضر.

### ب- خوصصة وهيكلة القطـاع الزراعي :

إن هـذا العامل كـان بمثابة دافـع قـوي لشباب الأريـاف بمغادرة بيئتهم، وهـذا نتيجة حرمانهم من الاستفادة من عملية توزيع الأراضي التابعة للدولة " مما اضطرهم للهجرة إلى المدن بحثا عن مصادر الرزق في قطاع البناء والأشغال العمومية الذي كان آنذاك في توسع وانتشار "

1. عبد العزيز بودن : التحضر في الجزائر، مجلة الباحث الاجتماعي العدد 5، 2004، الجزائر، ص ص. 162-164.

## ج-إتباع سياسة اقتصاد السوق :

إن التحول الإقتصادي الذي إنتهجته الدولة في السنوات الأخيرة والمتمثل باتباعها السياسة إقتصاد السوق و حرية الإتجار و تناقص الرقابة أحيانا على النشاط التجاري خاصة داخل المدن و هذا ما شجع أعداد معتبرة من شباب الأرياف والقرى إلى امتهان طباعة متجولين بمختلف المنتوجات المحلية أو المستوردة بطرق غير قانونية محققين بذلك أرباحا منتجة على حساب البيئة والمحيط وهذا ما دفع بالدولة (وزارة التجارة) إلى تنظيم هؤلاء التجار و إدماجهم في منضومة التجارة المحلية لتكون موردا بدعم ميزانية الدولة.

## د- الهيكلة الإدارية :

إن الهيكلة الإداريـة في الجـزائـر لازالـت تلعب دورا هاما في نمو التجمعات الحضرية و زيادة عدد سكانها، لأن إضافة مراكز حضرية جديدة في التصنيف الإداري معناه بالضرورة إضافة هياكل و مرافق و خدمات إدارية و اقتصادية و إجتماعية و ثقافية جديدة، "لاشك أن قلة المراقبة الإدارية للتغيرات التي تحدث في النسيج العمراني لعدة أسباب و اعتبارات سياسية و إدارية فسح المجال لمزيد من التعدي على الأراضي العمومية والمضارية عليها وتوسيع المستوطنات العشوائية، التي تعتبر المحرك الأساسي للهجرة الدائمة [1] والمستمرة من الريف نحو المدن خاصة وما حدث خلال الفترة الأخيرة.

1. نفس المرجع، ص. 52.

## 2- مراحل التحضر في الجزائر :[1]

### • الخلايا الأولى للنسيج الحضري في الجزائر :

إن التحضر في الجزائر ليست ظاهرة جديدة في الوسط الجزائري بل قديمة قدم حضارة البحر الأبيض المتوسط، وقد وجدت بقايا مستوطنات في الجزائر يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد اختلفت خصائص هذه المستوطنات الحضرية من زمن إلى آخر حسب اختلاف الأجناس التي شيدوها وعاشوا فيها، واختلاف الدوافع التي دفعتهم للعيش في الوسط حضري مميز عن الأوساط الريفية المجاورة إلا أن المؤكد أن هذه المستوطنات استطاع المقيمون بها أن يتحرروا من الحياة الريفية والنشاط الزراعي إلى أنشطة موازية مختلفة ومتخصصة وحرفية وتجارية.

### • مراحل التحضر في الجزائر :

وصلت نسبة الحضر في الجزائر في تعداد 1987 حوالي 49 % من مجموع السكان في حين أن هذه النسبة كانت حوالي 5 % في بداية القرن الـ 19 أي بعبارة أخرى فقد ارتفعت نسبة سكان المدن إلى مجموع السكان بحوالي 43 % في ضرف قرن ونصف وتحاول تلخيص مراحل التحضر في الجزائر كما يلي :

1- **المرحلة الأولى :** (1830–1910) : وهي مرحلة استكمال الغزو الفرنسي للجزائر وتوسيع الاستيطان الأروبي على حساب أراضي

1. بشير التجاني مرجع سابق، ص. 20.

القبائل والعروش المتواجدة في السهول الساحلية الخصبة والأحواض الداخلية وإقامة المستوطنات و الأحياء الأوربية بالقرب من المدن الجزائرية العتيقة وتدعيمها بالهياكل الأساسية من طرق برية وسكك حديدية، انجزت بأيادي جزائرية استقطبت من الأرياف، تبدأ هذه الشبكة عند مصادر المواد الأولية من معادن و ثروات طبيعية أخرى وتنتهي عند الموانئ من أجل ربط الجزائر بفرنسا في مجال التصدير والإستيراد المواد الأولية الخام مقابل المنتجات الصناعية الفرنسية ضلت الأغلبية الساحقة من الجزائريين خلال هذه المرحلة تعيش في الأرياف بأوضاعها المزرية المتدهورة في جميع المجالات الأمر الذي دفع الكثير منهم إلى الهجرة نحو المراكز الحضرية و العمل في الأشغال الشاقة كحفر خنادق السكك الحديدية و إنجاز الموانئ وشق الطرق عبر الجبال.

2- **المرحلة الثانية :** (1910–1954) : مرحلة الإضطرابات وكثرة الحروب والأزمات الإقتصادية العالمية التي أثرت على الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في الجزائر وتسبب في انتشار الفقر من جراء تناقص الإنتاج الزراعي الفرنسي وتعويضه بالمنتوج الزراعي الجزائري (خاصة الحبوب).

واستمرت هذه الوضعية الصعبة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أدّت هذه الظروف السياسية والاقتصادية إلى الهجرة من الأرياف إلى المدينة بحثا عن ظروف أفضل.

3- **المرحلة الثالثة :** (1954–1966) : مرحلة اندلاع ثورة التحرير والسنوات الأولى من الاستقلال التي شهدت معدلات نمو حضري مرتفعة

وهجرة من الأرياف اتجاه المدن بسبب انعدام الأمن و سياسة التشريد والطرد و التقتيل الجماعي و إقامة المحتشدات لمراقبة سكان الأرياف وعزلهم عن الثورة بعد الإستقلال تواصلت الهجرة المكثفة نحو المدن بسبب عودة اللاجئين الجزائريين من المغرب و تونس واستقرارهم في المدن زيادة عن الهجرة المكثفة من الأرياف بسبب تواجد حظيرة السكن الشاغر في المدن من جراء مغادرة الفرنسيين الجزائر.

-4**المرحلة الرابعة :** (1966–1977) :وهي مرحلة التخطيط الإقتصادي وسياسة التصنيع التي تبناها الرئيس الراحل هواري بومدين مصحوبة بإصلاحات زراعية كتأميم الأراضي وإنشاء التعاونيات الفلاحية و بناء القرى الاشتراكية، كل ذلك أدى إلى تحريك السكان إلى المدن بحثا عن العمل وحياة أفضل بسبب سياسة التركيز على عملية التصنيع في مجال الاستثمارات وتهميش الزراعة.

-5 **المرحلة الخامسة :** (1977– 1987) : وهي مرحلة تشبع المدن وكثرة الأزمات الإجتماعية خصوصا أزمة السكن الحادة وانتشار البطالة من جراء العدول عن الاستثمار الصناعي ونزع الدعم الحكومي لبناء السكن وباقي القطاعات الأخرى وعدم قدرة الهياكل والتجهيزات الحضرية من تغطية الحاجيات السكانية المتزايدة.

## 3- معدلات التحضر :

### 1- النمو الديمغرافي :

**أ- الزيادة الطبيعية :**

وهي زيادة الولادات و نقص الوفيات و أثر هذه الزيادة في النمو الحضري في الجزائر واضح، حيث أن تعدادات السكانية التي أجريت في السنوات الأخيرة في الجزائر أثبتت أن معدلات النمو مرتفعة حيث وصل معدل النمو السكاني كمتوسط 5.06 %، وهذا راجع إلى تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين الريفيين إلى المدن، ويتميز معظمهم بأنهم في الأعمار الوسطى القادرة على الإنجاب، وبما أن هؤلاء المهاجرين يتوافدون إلى المدن متشبعين بعداتهم الريفية التي تفرض قيود الإنجاب ومن ثم تتميز خصوبتهم بالإرتفاع، تظهر هذه الظاهرة خاصة في الأقاليم الشمالية الشرقية والوسطى والهضاب العليا.

**ب- الهجرة الريفية :** وكان لها تأثير كبير في ارتفاع عدد السكان للمدن على حسب الوافدين من الأرياف نحو المدن، ففي الجزائر مثلا خصت هذه الظاهرة ارتفاع الكثافة السكانية في المدن وارتفاع معدلات النمو الحضري، ففي المرحلة ما بين 1966-1977 قدرت بـ : 1.7 مليون بها حسب اختلاف المراحل و الفترات والتغيرات الاجتماعية السياسية والاقتصادية المتلاحقة في البلاد مما جعل التجمعات الحضرية غير قادرة على استيعاب

1. بشير التجاني : نفس المرجع، ص. 36.

سكانها و تلبية طلباتهم من عمل وخدمات و مأوى الأمر الذي أدى و لا يزال يؤدي إلى اختناق المدن بالسكان وتدهور الأوضاع بها في مختلف المجالات.

-2 **النمو الاقتصادي :**

لا يعتمد التحضر فقط على نسب الزيادة الديمغرافية ولكن يعتمد أيضا على العنصر الاقتصادي الذي يتركز أساسا على الزراعة ثم على تضاعف الأشغال الزراعية، بحثا على مستوى معيشة عالي، ولقد انتهجت الجزائر لتطوير نشاطها الاقتصادي سياسة الخوصصة في مجال التنمية الاقتصادية و تشجيع القطاع الوطني الخاص على الاستثمار في مختلف المجالات الاقتصادية، وهذا ما شجع الهجرة من الريف إلى المدن فظهور قوانين الاستثمار في القطاع الوطني الخاص أدى إلى ظهور عدد كبير من الوحدات الصناعية الخاصة للمناطق الصناعية الواقعة بقرب المدن الكبرى والمتوسطة، والتي هيئت من طرف الدولة للإستقبال مثل هذه المؤسسات الإنتاجية لتجربة مبدئية في مجال الخوصصة، وفي سنة 1987 منحت الدولة 1604 رخصة لإنشاء وحدات صناعية خاصة، والتي استقطبت الأيدي العاملة خاصة منها القادمة من الأرياف.

ففي دراسة أجريت حول المناطق الصناعية بمدينة وهران تبين أن حوالي 75 % من الأيدي العاملة المستغلة في القطاع الصناعي الخاص أصلها من الأرياف.

### 3- البعـــد الثقافي :

إن أهمية البعد الثقافي تكمن في أنماط التفكير والسلوك السائدين وكذا التطوير العلمي الحاصل في البلاد فهو يعكس بصورة حقيقية الأوضـاع الاجتماعية للبلاد، الجـزائـر شأنها شـأن دول العالم الثالث عرفت الثورة الصناعية التي أثرت على مجريات الحياة الحضرية.

### 4- أنمـاط التحضر فـي الجزائر : [1]

يمكن أن تعرف على أنماط التحضر في الجزائر وهذا بتصنيفها حسب وتيرتها (سرعتها) :

### ✓ تحضر بطيء :

وساد هذا النوع من التحضر في المرحلة الإستعمارية، ورغم أن هذه المرحلة شهدت شيئا من التحضر المتمثل في توسيع الإستيطان الأروبي وإقامة مستوطنات وإقامة أحياء خاصة بالجزائريين لعزلهم عن الثورة، إلا أن الأغلبية من الجزائريين كانوا يعيشون في الأرياف في وضعية مزرية.

### ✓ تحضر سريع :

وساد هذا النمط بعد الإستقلال حيث عرفت عودة اللاجئين إلى أراضي الوطن و زيادة الهجرة الريفية بسبب تواجد حظيرة السكن الشاغر في المدن من جراء مغادرة الفرنسيين، وساعد أيضا على

1. نفس المرجع، ص. 53.

هذا النمو الحضري السريع التخطيط الإقتصادي وسياسة التصنيع المنتهجة من طرف الدولة.

✓ **تحضر شبه ثابت :**

و يسود هذا النمط حاليا في الجزائر حيث أن نسبة التحضر في المدن الجزائرية أصبحت شبه ثابتة و هذا راجع لعدة أسباب منها أزمة السكن والبطالة وكثرة الأزمات الاجتماعية

**5- أشكال التحضر في الجزائر :** [1]

إن التوسع العمراني الكبير الذي شهدته الجزائر خلق وحدات مركزية جديدة و التي من المفروض أن تدمج في النسيج العام للمدينة ونستطيع أن نميز بين شكلين من النمو الحضري :

أ- النمو المستمر.

ب- النمو (الغير مستمر) المتقطع.

**أ- النمو المستمر :**

ونعني به مضاعفة الإيطار المبني عن طريق إنتاج مجالات جديدة، وبذلك فإن النسيج العمراني يكون مستمر من حيث البنية والشكل العام، وهذا النمو يعطي أفضلية لكثافة ذات حد أعلى وتنظيم قوي للنواة مثل القوى الصغيرة والقديمة المحتواة في المدينة التي أصبحت تشبهها وأصبحت وسط مدينة قديمة.[2]

1. نفس المرجع، ص ص. 64-65.
2. Elément d'analyse urbaine, philipe Panerai. p. 16.

والتوسع يكون في اتجاه رئيسي و إتجاهات متعددة حيث نتكلم عن نمو خطي (مرتب بخط) و نمو قطبي (مرتب بقطب).

**ب- النمو المتقطع : (غير المستمر)**

الزيادة المتقطعة تعرف كتنظيم شمولي للأقاليم المهيمنة بإنقطاعات (نباتية، زراعية) بين الأجزاء القديمة والتوسع الذي نتج عن الإنفجار للمدينة من حيث الحضر، ولكن بمراقبة الظاهرة عن قرب نجد أن الظاهرة ليست جديدة من الناحية المرفولوجية و مفهوم الزيادة المتقطعة مهم للأخذ في الحساب بعض مراحل تشكل المدينة الأكثر قدما.

## V- إنعكاسات عملية التحضر في الجزائر :

### 1- سلبيات وإيجابيات التحضر في الجزائر : [1]

**أ- السلبيات :**

أدى النمو الحضري المتزايد في الجزائر إلى انعكاسات سلبية نذكر منها :

1. كثرة الطلب على السكن الحضري بسبب الزيادة الطبيعية بين سكان المدن أدى إلى ظهور أزمة سكن إضافة إلى استمرار الهجرة الريفية المقدرة بحوالي 130.000 نسمة سنويا مع نهاية الثمانينات مما جعل الدولة عاجزة على تلبية الطلبات المتزايدة على سكن، كما أصبح من الصعب الوصول إلى تحقيق التوازن بين الاحتياج الحقيقي

1. نفس المرجع، ص ص. 88-90.

للسكن الحضري من جهة والطلب المتزايد عليه من جهة ثانية رغم جهود الدولة المتواصلة بتوفير السكن، ودعمه وسوف تستمر أزمة السكن الحضري في الجزائر خلال عشرية المقبلة بسبب لعجز في السكن الذي قدر بحوالي مليون وحدة سكنية سنة 1994.

2. التدهور في مستوى تجهيز المدن بالمرافق و الخدمات جميع المؤشرات توضح تدهور مستوى المرافق والخدمات في المدن الجزائرية التي أصبحت طاقتها محدودة لمواجهة تزايد عدد سكان الحضر، من بين هذه المؤشرات إختناق المدن الكبرى بحركة المرور و عدم تطور شبكة الطرق لتلبية متطلبات حركة المرور المكثفة بها نتيجة الزيادة المرتفعة لعدد السيارات، كما أن وسائل النقل الحضري أصبحت عاجزة عن تلبية احتياجات تنقل السكان خلال رحلاتهم اليومية، وأحسن مثال على ذلك حركة المرور بمدينة الجزائر العاصمة وهران، قسنطينة، عنابة، وهذا ما يستلزم التخطيط المحكم والجيد عن طريق توفير الهياكل القاعدية الضرورية لميدان النقل بصفة عامة، وكذا توفير الخدمات و المرافق القاعدية الضرورية، وضرورة تجهيز مدن جديدة والأحياء السكنية بجميع الخدمات والمرافق الضرورية، ولهذا لتحقيق من درجة الاختناق التي تعانيها التجهيزات والمرافق السابقة.

2. تناقص كمية المياه الصالحة للشرب، أصبح تموين المنتوجات الحضرية بالمياه الصالحة للشرب يعد إحدى المشاكل الكبرى التي تواجه سكان المدن، لقد تناقص معدل كمية المياه المستعملة يوميا بالنسبة للفرد الواحد في المدن الجزائرية من 50 لتر إلى 80 لتر سنة 1987 حيث أصبح من الصعب تعبئة المياه الضرورية لمواجهة النمو

الحضري السريع المتمثل في نمو و توسيع و زيادة عدد سكانها الذي صاحبه زيادة في استهلاك المياه، وبالتالي تناقص كبير بكميات المياه المخصصة للري، وقد انعكس هذا سلبا على الأراضي، حيث أصبح يعتمد معظمها على مياه الآبار وحسب الدراسات والأبحاث التي قامت بها المسقية التي تمون التجمعات الحضرية بالمنتوج الزراعي فإن العجز المسجل في التجمعات الحضرية يعود أساسا إلى نقص في الموارد المائية و كذا إلى سوء تسيير قطاع المياه و ارتفاع نسبة التسرب وضياع الذي قدرت بحوالي 40 % من مجموع الكميات وقلة الصيانة وهذا بسبب قدم أنابيب شبكة نقل المياه بالمدن وتقدر احتياجات التجمعات الحضرية في الجزائر مع نهاية عام 2000 بحوالي 02 مليار متر مكعب.

3. اكتساح التوسع العمراني للأراضي الزراعية : تعتبر الأراضي الزراعية في الجزائر من العناصر الطبيعية النادرة ومساحتها محدودة حيث قدرت في سنة 1992 بحوالي 7.5 مليون هكتار، أي بنسبة 5 % من المساحة الإجمالية للبلاد، و تقع أغلبها في الشمال، اكتسحت المنشآت العمرانية الأراضي الفلاحية الخصبة في كثير من الحالات، و قد لوحظ سهولة التعدي على الأراضي الفلاحية و خاصة من قبل قطاع السكن والصناعية كما تأثرت الأراضي بالتلوث الصناعي، أما الآن فقد حد من ذلك الملك الخاص و العام و أملاك الدولة.

**ب- الإيجابيات :**

1. تساهم عملية التحضر في رفع معدلات النمو الحضري.
2. تزايد عدد المراكز الحضرية بشكل مستمر يعكس مدى الطاقات الكامنة الموجودة في البلاد.

3. الإرتباط الإيجابي بين التحديث و التغيير الإجتماعي من ناحية و حجم السكان من ناحية أخرى.

4. التوزيع الهرمي المتناسق للمدن يعطي شبكة لانتشار التغيرات الاجتماعية على الوحدات فضلا عما يحدث من تغيرات تكنولوجية على الوحدات المكانية واقتصاد الدولة ككل.

**2- إشكالية التحضر في الجزائر وإمكانية وجود حلول :**

إن ظاهرة التحضر أصبحت منتشرة في كثير من المراكز العمرانية في الجزائر حيث صارت تواجه العديد من المشاكل منها ما يلي :

← ارتفاع معدلات النمو الحضري التي أصبحت تتراوح ما بين 3-6 % سنويا في مختلف أحجام المدن الجزائرية.

← عدم القدرة على التوسع الحضري و احترام مخططات التهيئة والتعمير بسبب الاختلال في التوازن بين سرعة نمو النسيج العمراني وقلة إمكانيات و وسائل المراقبة و انعدامها في بعض الأحيان.

← فقدان السيطرة الأمنية على المدن نتيجة النمو العمراني المفرط والغير مخطط.

وقد ترجع الإشكاليات الناتجة عن هذه الظاهرة إلى :

الموجات المستمرة لتوافد من الأرياف نحو المراكز الحضرية بسبب الإكتظاظ و تناقص فرص الشغل و تهيئة الأرياف.

و كمحاولة للحد من ظاهرة التحضر وضع الخبراء و الباحثين المهتمين مجموعة من المحاولات والإستراتيجيات والبدائل التي يمكن اعتبارها وقاية للنمو الحضري المتوقع مستقبلا ، والتي نذكر منها :

1. تحديد الطاقة الإستيعابية المتوقعة والممكنة لكل مدينة وفق محدداتها وإمكانياتها الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية.

وظاهرة المجتمعات الحضرية التي بدأت تظهر في الجزائر، حيث تداخلت حدود بعض المراكز الحضرية ومجالاتها حتى أصبح من الصعب تعريف الحدود الوسطية لهذه المراكز بسبب تلاحم نسيجها العمراني.

ولذا يجب الاستفادة من تجارب البلدان التي سبقتها في هذا المجال وذلك بتقسيم المجتمعات إلى وحدات إدارية تتمتع بدرجة من الاستقلالية، ولعل العدد المناسب لسكان الوحدة الحضرية الواحدة يتراوح ما بين 20-40 ألف نسمة حتى تسهل عملية التسيير.

2. بناء هيكلة حضرية متزنة عير مختلف جهات التراب الوطني مع عدم التركيز على العاصمة أو المدن المتروبولية، المدن الجهوية الكبرى، من أجل إيجاد نوع من التوازن بين أحجام التجمعات الحضرية من جهة ولتوجيه النمو العمراني نحو مراكز حضرية ثانوية بدلا من التركيز على المدن الكبرى.

3. تهيئة إقليم المدينة للتخفيف من الضغط المركز على المدينة إداريا واقتصاديا.

لقد حاولنا من خلال هذا العرض البحث عن الظاهرة الحضرية والتعرف على بعض جوانبها و المشاكل الناتجة عنها، فالتحضر سمة هذا العصر حيث نمت المدن بشكل رهيب يدعو للتساؤل كثيرا عن خلفيات هذا النمو، وهذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحليل ولكننا نرجو أن نكون قد ألممنا ولو لمحة خاطفة عما يصاحب هذه الظاهرة من مشاكلات، ويبقى حل هذه المشاكلات مستعصيا جدا دون أن ننسى الدور الإيجابي لهذه الظاهرة كونها تنشر التطور والرقي في كافة الميادين.

## المراجع :


### 1. المراجع باللغة العربية :

1- بشير التيجاني- التحضر والتهيئة العمرانية في الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة المركزية ابن عكنون 02-2000 الجزائر.

2- محمد السيد غلاب- جغرافيا الحضر - مكتبة الإشعاع الـ ***- طبعة جديدة - 1997 - مصر.

3- فتحي محمد أبو عيانة - جغرافيا العمران - دار المعرفة - 1998 — مصر.

4- جاكلين بوجاقدرنين والترجمة لـ: فتحي محمد أبو عيانة - الجغرافيا الحضرية - ديوان المطبوعات الجامعية - 1989 - الجزائر.

5- عبد العزيز بودن : التحضر في الجزائر مجلة الباحث الاجتماعي، العدد 5، 2004، الجزائر.

### 2. المراجع باللغة الفرنسية :

1. Philipe panorai – élément d'analyse urbaine – p. 16.17.18.
2. Ebenzer haword – les cites jardin de denain. p. 1976.

# المدينة المنورة
# مركز استقطاب العلماء الجزائريين

أ. لبصير سعاد
باحثة بمخبر الابحاث والدراسات حول حركات الهجرة جامعة قسنطينة

لما كان المسجد النبوي الشريف أهم معالم الدين الإسلامي، فقد أثار اهتمام المسلمين عامة والعثمانيين خاصة، من ذلك عدة توسعات شهدها المسجد النبوي الشريف خاصة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1260-1273م)، كما مد خط حديد الحجاز الذي يربط المدينة بدمشق بشكل جيد،[1] و يرجع هذا الاهتمام إلى قداسة المدينة المنورة التي لها مكانة عالية في قلوب المسلمين فهي عاصمة الإسلام الأولى و محضن المسجد النبوي الشريف الذي يعد من أهم معالم المدينة المنورة، وثاني مسجد تشد إليه الرحال. فقد اختار موقعه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إثر وصوله إلى المدينة مهاجراً، وشارك في

1. علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ط2، دار التوزيع والنشر الاسلامية، مصر 2001، ص191.

بنائه بيديه الشريفتين مع أصحابه رضوان الله عليهم، وصار مقر قيادته، وقيادة الخلفاء الراشدين من بعده، ومنذ ذلك التاريخ وهو يؤدي رسالته موقعاً متميزاً للعبادة، ومدرسة للعلم والمعرفة ومنطلقاً للدعوة، وظل يتسع ويزداد، ويتبارى الملوك والأمراء والحكام في توسعته وزيادته حتى آل إلى ما هو عليه الآن، وقد وردت في فضائل المسجد الشريف أحاديث نبوية كثيرة تبين أهميته ومكانته العظيمة بين كافة مساجد الإسلام.

ووردت هذه الأحاديث في معظم كتب الحديث والتاريخ في باب الحديث عن المدينة المنورة، وعن المسجد النبوي بشكل خاص، ومن هذه الأحاديث : ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لاشتد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى" [1]

وقد عرف العلماء الجزائريين خلال العهد العثماني هذه الأهمية فشدوا الرحال لمجاورة مسجد الحبيب،فاعتبرت هذه الرحلات فنا أدبيا لأنه يتوفر على عناصر ذاتية للإمتاع ومقومات شكلية وأسلوبية وهو من أقدم الآداب وأجلها نفعا حيث تسجل لنا الكثير من الحقائق من وصف الأماكن وذكر حال العباد و البلاد، ولهذا اهتم به سكان الجزائر عامة والعلماء منهم خاصة، فكان من نتائج ذلك أن تركوا لنا رصيدا هاما يروي رحلاتهم ومشاهداتهم واعتبرت مصادر هامة لنقل الأحداث والحقائق.

1. البخاري ابر عبد الله بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برذزبة الجعفي، صحيح البخاري، المكتبة التجارية لبنان دت، ص 123.

أم أسباب المجاورة والرحلة إلى المدينة،فيرى الأستاذ أبو القاسم سعد اللّه أن الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين أو سواح، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون فريضة الحج و يزورون الحرم الآمن، لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم و خيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم و من ثم كان هناك جزائريون قد كتبوا رحلات حجازية خيالية دون أن يرحلوا بأجسامهم فكتبوا قصائد مطولة يمدحون فيها فيها الرسول الكريم صلى اللّه عليه وسلم، ويصفون وصفا حيا كل شبر من تراب الجزيرة.[1]

من ذلك ديون ابن مسايب أبو عبد اللّه محمد بن أحمد وهو عبارة عن قصائد كتبها تدور مواضيعها في هذا المجال كمدح الرسول الكريم صلى اللّه عليه و سلم، منها قصيدته حول رحلته لأداء فريضة الحج[2]، ونذكر أيضا سعيد المنداسي الذي ألف ديوانا من أهم قصائده قصيدة "العقيقة" التي قام أبو راس المعسكري بشرحها وقدمها هدية إلى السلطان المغربي[3]، وهي في مدح الرسول صلى اللّه عليه وسلم ونالت شهر كبيرة في عصره وفي العصور التالية،حيث طبعت في الجزائر سنة 1901م و ترجمت إلى الفرنسية من قبل الجنيرال "فور بيكي".[4]

1. أبو القاسم سعد اللّه، ابحثا و أراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول،ط2،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر 1981ص177.
2. ابو عبد اللّه محمد ابن أحمد ابن مسايب، ديوان ابن مسايب، إعداد و تقديم الحفناوي أمقران السحنوني و أسماء سيفاوي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989، ص106، 101
3. العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام لمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ط2، ج6، مراجعة عبد الوهاب بن منظور، المطبعة الملكية، الرباط، 2001، ص 531.
4. أنظر الناصر أبوراس الذرة الأنيقة في شرح العقيقة مخ،م،و،ج رقم 3326 مجموع الورقة 2–31.

قد يكون السبب الحقيقي في الرحلات الحجازية الجزائرية تعود بالدرجة الأولى إلى تعلق الجزائريين بالبقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، غير أن المتأمل في هذه الرحلات أو المطلع على أسباب انتقال الجزائريين إلى الحجاز ليدرك أن أسبابها تنوعت و تعددت حسب الظروف والأوضاع التى يحل فيها المتنقل، لذلك يمكن أن نصنف أسباب هذه الرحلات إلى سياسية، ثقافية، دينية، اجتماعية وحتى اقتصادية، فأهم الأسباب السياسية الهروب من ظلم و جور الحكام العثمانيين، والفساد المنتشر وإقصاء العلماء الجزائريين من حكم بلادهم والاضطرابات الداخلية وانتشار الرعب في نفوسهم وضيق مجالهم.

وعن هذه الظاهرة أشار صاحب الثغر الجماني واصفا حالة البلاد نقلا عن شاهد عيان قائلا «... ثار الرأي العام على الجرائم التي كان يرتكبها الأتراك على يد بعض البايات السفاحين الذين ضربوا الرقم القياسي في الاستخفاف بأرواح الأبرياء،كآخر باي الولاية الوهرانية حسن، فإنه كان يتتبع رجال العلم والدين فيسجن ويعذب ويقتل وأحدث محاكم التفتيش الشبيهة بالمحاكم التي أحدثها الأسبان بعد سقوط مملكة غرناطة، وقد ذهب ضحيتها كثير من كبار العلماء والرؤساء و كان من جملة ضحايا هذه المحاكم السيد محي الدين والد الأمير عبد القادر الذي كان مرابطا في معهد والده بالقطينة لتدريس العلم فألقى عليه القبض وسيق إلى وهران صحبة ولده الأمير عبد القادر فتدخل في أمره أحد أعيان المخزن فخفف عنه الحكم وألزم بالإقامة الإجبارية في وهران وقد خاطبه وهو في سجن وهران تلميذه

السيد سنوسي بن عبد القادر الدحاوي بقصيدة بين فيها الظروف التي من أجلها قبض عليه...».[1]

قائلا :

**عول على الصبر لا تفزعك أشجان ولا ترعك بما فاجتك وهران**

**أمـا هي الـدار لا تؤمن غـوائلها بلى هي الدار أغيار و أحـزان**

إن الحكام العثمانيين لم يتركوا وسيلة إلا واتبعوها للوصول إلى هدفهم وهو المحافظة على استقرار حكمهم، فبداية من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي كانت السمة الرئيسية التي طبعت سياستهم هي العنف و محاولة السيطرة الفعلية على البلاد بالقضاء على أي خطر يهدد مصالحهم في الحصول على النفوذ والموارد المالية، الأمر الذي ولد صراعا حادا بين الحاكم و المحكوم ونشر الفوضى وعدم الاستقرار بالبلاد، وهو ما فجر الثورات المحلية في بداية القرن (13هـ 19-م).[2]

وقد أشارت معظم المصادر إلى هذه الظاهرة مثل الورتلاني وصف ظلم الأتراك قائلا«... أقول كما قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر... اجتمع عليها "الجزائر" أمران ظلم الأتراك و ظلم الأعراب فكانت بينهما كالكورة في أيدي الصبيان... استولى عليها الأتراك وما كان عليها من أحباس ومدارس كانت في أيديهم...».[3]

1. أحمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح، المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 49.
2. جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري رسالة ماجستير وإشراف حسين حماد، جامعة قسنطينة، 1991، 1990، ص. 258.
3. الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط 2، دار الكتاب العربي،

كما لاحظ المازري نقلا عن عبد القادر مسلم أن الأتراك لما تمهد ملكهم بالجزائر كثر ظلمهم وفسادهم وأخذ العلماء يستنكرون عليهم سلوكهم هذا و يهجونهم، منهم سعيد بن عبد الله المنداسي الذي قال فيهم :

بنَى السُّددُ ذو القَرْنَيْنِ للناس رحمةً فياليته من شوكة الترك هنانا

وكذلك عبد القادر مسلم قال :

**فاستعلوا بالظلم ليس من عدل فأخذوا أخذا وبيلا بالمهل**

**لما نســـو ما ذكـــروا بـه ختم على قلوبهم الله وانتقم**[1]

لكل ذلك انتشر تنديد الأهالي وتحسرهم على حالة الظلم السائد، فهذا المرابط سيدي محمد بن الشريف الباجلي الذي توفي سنة 1522م وصف الوجود العثماني بالنازلة أو الحادثة الغير عادية أو اللعنة فيقول(ماذا نقول عن وطن انتشرت فيه ظاهرتي العنف والجهل وتكاثر فيه التكبر والظلم والخمر وأصبح أمر عـادي، المسلمون يعذبون و يقمعون، والأجنبي (الترك) محاطا بالفخر و لا أحد يملك القوة والشجاعة للمواجهة الوضع، هل هذا بسبب شراء المصلحة أو بلا وعي...)[2]

وقد أشار صاحب كعبة الطائفين أن معظم المرابطين في تلمسان ونواحيها كانوا ضد الأتـراك منهم شيخهم موسى الملاتي ناظم

لبنان 1984، ص 110.

1. عبد القادر مسلم ، أنيس الغريب و المسافر، تح، رابح بونار، الجزائر، 1974، ص 121.
2. إبن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 115.

قصيدة حزب العارفين والشيخ اليعقوبي دفين زاويته بندرومة إذ أن الشيخ اليعقوبي زار أبا مدين بتلمسان وسأله « إبدال دولة الأتراك من آل يافت لكثرة جورهم، وأن أبا مدين كلمه من قبره قائلا : إن قبلتها يا عبد الرحمان نعطيها لك، فأبى فقال له أبو مدين : اصبر في هذا الوقت لم نجد من يصلح ويتكفل بها و سيأتي اللّه بالفرج».[1]

وحتى الشعر الشعبي عبر عن ظلم الأتراك من خلال البيت التالي :

قصة طراد شاور الزمان يا حضار من الترك الخداعين يا حسرة.[2]

ولما تعددت أغراض الرحلة كان لها غرض الرحلة من أجل العلم، وخاصة بعد حالة الركود الذي عرفته الحياة العلمية في الجزائر في العهد العثماني، إذ اختار العلماء تحمل عناء السفر من اجل ملاقاة العلماء والأخذ عنهم مثل أبو راس الناصري ومحمد بن قنفد القسنطيني، إلا أن هذا لا يعني أن كل الجزائريين الذين شدوا الرحال إلى بلاد الحجاز كان غرضهم طلب العلم،فهناك من انتقل من اجل التعليم و ذاع صيته هناك، أمثال أحمد المقري التلمساني ويحي الشاوي وأبو راس الناصري وعيسى الثعالبي.[3]

ولما كان المسجد الحرام من أعظم جامعات العالم الإسلامي فنجده قبلة للطلبة العلم للتزود خاصة وأن الرسول الكريم صلى اللّه عليه

1. موسى بن موسى الملاتي،من كتاب سعد الله أبو القاسم، دراسات وأبحاث، ص 91.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 والشركة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1985، ص. 214.
3. بوشنافي محمد، وقراءة في رحلة محمد بن مسايب إلى الحجاز في القرن الثامن عشر ص 227،228 في مدونات الرحالة العرب و المسلمين، أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين اكتشاف الذات الأخر و دورة الجزائر 2005، دار السويدي للنشر والتوزيع والإمارات.

وسلم قد دعى إليه قائلا : "من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره".[1]

خاصة و أنه قد أفرد له الدين الحنيف آيات بينات من الذكر العزيز،كله يؤكد أهمية العلم و يحثنا عليه " الله خالق كل شيء ومدبره و مسخره للإنسان "، وبالتالي وضع في الإنسان الدافع للاستكشاف كل ماحوله والاستفادة منه ومعرفة عظمة الخالق [2].

ومن قوله أيضا في الحث عن العلم "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا،إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" [3].

وفي السنة أيضا أحاديث في نفس السياق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقه إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفظهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده" [4]

وغير ذلك فقد انتقل بعض الجزائريين إلى بلاد الحجاز للجمع بين أداء فريضة الحج والتجارة، فلما احتكر العثمانيين الثروة تراجعت أوضاع الجزائريين فخرجوا يبحثون عن مصادر رزق أمثال ابن

1. صحيح البخاري، المصدر السابق، ص. 88.
2. عواطف محمد يوسف نواب،الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض، 1417، 1996، ص.12.
3. القرآن الكريم، سورة الجاثية، الأية 45.
4. صحيح البخاري، المصدر السابق، ص 31.

حمادوش وهو عبد الرازق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، الذي ولد و نشأ في مدينة الجزائر سنة 1107هـ وعاش إلى أن تجاوز التسعين سنة.[1]

توفي والده و هو ما زال صغيرا، و ظل في رعاية عمه الذي زوجه ابنته، كان ابن حمادوش من عائلة متوسطة الحال تلقب بأسرة "الدباغ" لأن والده امتهن مهنة الدباغة،كما كانت أسرته على صلة بطبقة التجار والحرفيين في مدينة الجزائر، لذلك تزوجت أخته من عائلة تشتغل بالحرارة، وتزوج هو مرة ثانية من عائلة تحترف صناعة النحاس وتلميعه، بدأ ابن حمادوش الرحلة وهو صغير،فحج سنة 1130 هـ بالبر عبر تونس. وقد سجل لنا رحلته المنظومة بعنوان "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "[2].

ولو تعرضنا لكل الجزائريين الذين اتخذوا من المدينة المنورة قبلة لهم لطالت بنا القائمة أمثال مفتى المالكية ابن عمار، الذي انتقل إلى حاضره العلم بالمشرق وزار مقام الرسول صلى الله عليه و سلم، وهو الذي قال عنه أبو راس الناصري : «شيخنا الذي ارتدى بالنزاهة يافعا كهلا و كان للتقليب بشيخ الإسلام كهلا ، كما خصه بتخريج الأسانيد من التلاميذ والفقهاء النحارير و العلماء الجماهير»[3]، فيبدوا أن ما شاهده ابن عمار من فساد في الحكم بحكم وظيفته

1. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، 1980،ص. 123.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ج2، المرجع السابق2، ص438.
3. محمد بن أحمد أبو راس الناصري، فتح الإله في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح، محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 67.

وكثر حساده لذلك سار إلى أداء فريضة الحج سنة 1126 هـ، وعلى ما يبدو أنه رافق الحسين الورتلاني لما عاد إلى الجزائر، قرر الهجرة منها مجددا لما لقيه من فساد في الأوضاع، حيث كان محسودا لعلمه و قلمه و استقلال فكره ومدى انتقاده لمعاصريه على جمودهم العقلي وضعف عارضتهم و تخليهم عن الاجتهاد و النظر.[1]

وتوفي هناك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الثاني سنة 1213هـ مخلفا عدة مؤلفات منها " نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب " التي تعرف بالرحلة الحجازية، وكذلك " لواء النصر في علماء العصر. "[2]

ومن العلماء الجزائريين الذين أكثروا الترحال أيضا ودخلوا المدينة الشريفة أبو راس الناصري الذي حج مرتين الأولى سنة 1204 والثانية في 1226 سماهما " عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي "، و" فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته " ويبدو أن الناصري قد اهتم في رحلته بنقل أخبار علمائها أكثر من أحوال البلاد فأشار في حجته الثانية إلى علماء مكة الذين التقى بهم دون ذكر لأسمائهم و كذا علماء المدينة، سجل أنه سئل في المدينة عن العقائد وفي مكة عن أصل كل علم وسبب تدوينه بالتالي للمناظرة والتفاوض حول المسائل العلمية والقضايا الدينية، عبد الله بن محمد.[3]

فالمناظرات العلمية كان الغرض منها في نظر أبي راس التأكيد على نباهته و تفوقه في علوم عصره فيقول في هذا الشأن : في الحجاز

1. الحسين الورتلاني، المصدر السابق، ص 54.
2. عادل نويهض، المرجع السابق، ص. 36.
3. أبو القاسم سعد الله، أبحاث، المرجع السابق، ص 187،186.

« لقيت علماء الوهبية وهم تسعة أكابر أفضلهم الشيخ علي فوقع لي معه مناظرة و مباحثه واعتراضات وسؤالات وأجوبة فائقات ودلائل قاطعات وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة، ثم تناظرنا بعد صلاة العصر قبالة الحجر في صلاة العصر وقراءة دليل الخيرات والتسبيح بالسبحة ومشاهد السادات و هدم مباني الأولياء ذوي الكرامات، فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة» [1].

وخلافا لأبي راس فقد سجل لنا الحسين بن محمد سعيد الورتلاني الذي حج ثلاث مرات الأولى سنة 1153 هـ والثانية سنة 1166 هـ، والثالثة 1179 هـ، سجل لنا من خلال رحلاته أحوال البلاد والعباد إذ تضمنت وصف للطريق الذي سلكه والحكام والسكان.

ومنهم أيضا عيسى الثعالبي الذي أتجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج فمكث بها سنتي 1062-1063 هـ، وأخذ عن شيوخ الحرمين كالقشاهلي، والزين والطبري[2]، ولما فرغ من أداء فريضة الحج اتجه إلى مصر وأخذ عن بعض علمائها كالقاضي الشهاب أحمد الخفاجي وأبي الحسن علي المصري، ومحمد البابلي والأجهوري.[3]

بعد أن مكث الثعالبي في مصر مدة كافية لتحصيله العلمي عاد إلى الحجاز و مارس التدريس بمكة [4] ويبدو أنه كان قد أخذ تعاليم

1. محمد بن أحمد أبي راس الناصر، عجائب الأسفار،المصدر السابق، ص49.
. أنظر حول موضوع المناظرات التي تتم من خلال الرحلات الحجازية " عبد السلام بن المختار شقور " المناظرات والإشادات في رحلات المغاربة الإنشادية "، تطوان المملكة المغربية 1426هـ.
2. أبو سالم العياشي، رحلة العياشي ج2، الطبعة الحجرية، فاس، 1301 هـ، ص 138.
3. عادل نويهض، المرجع السابق، ص 91.
4. سعاد لبصير، هجرة و نفي أهل العلم والدين من الجزائر في العهد العثماني ومذكرة لنيل

الصوفية عن الطريقة التقشندية عن الشيخ صفي الدين القشاشي المدني في الحجاز

استقر الثعالبي بالحجاز وطلق زوجته بالجزائر بإشارة من والدها ولما توفي شيخه أبي الحسن قادته العناية إلى مجاورة الحرمين لمدة سنتين ودرس العلم بها و أقبل عليه الكثير، توفي الثعالبي يوم الأربعاء السادس من رجب سنة ثمانين بعد الألف (1080 هـ) ودفن بالحجون عند قبر الأستاذ الشيخ محمد بن عراق بالحجاز [1].، يتوفر على مكتبة حافلة في بعض ما اشتملت عليه من كتب منها ماهو بخط يده ومنها ما لغيره جعل مقرها مأواه في الحرم المكي

ومن توات نجد الشيخ العالم عبد الرحمن بن عمر التنلاني من العلماء المجددين رحل إلى الحجاز سنة 1188 هـ،ودخل المدينة المنورة بعد قضاء حاجته في مكة، "ودخلنا المدينة المشرفة يوم الخميس السابع من المحرم وصلينا الظهرين بالمسجد الشريف وسلمنا عليه صلى الله عليه وسلم على صاحبه"، وأخذ عن شيوخها.[2]

" اختبرت علماء القاهرة والحرمين... كالعالم المتفنن ابي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله السجلماسي المجاور في الحرمين"[3] و من نفس المنطقة المجاور عبد الرحمن بن عمر الذي أكد أن سبب زيارته

شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف د. كمال فيلالي، قسنطينة، 2008، ص. 237، 238.

1. محمد الصغير الأفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تق، تحو عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء المغرب، دت، ص. 284.
2. حسن الوركلي، أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين والعربية السعودية، مكة، 1422، ص. 78.
3. محمد باي بلعالم، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني، مطبعة هومة، الجزائر 2004، ص 9 ـ 10.

إلى البقاع زيارة المسجد النبوي و هذا ما احتوته رحلته الحجازية "... وبعد، فلما من اللّه علي بالتوجه لحج بيت اللّه الحرام وزيارة قبره صلى اللّه عليه وسلم... "[1].

1. عبد اللّه كروم، الرحلات بإقليم توات، دحلب، الجزائر 2007، ص. 59.

# المحتشدات في الجزائر :
# عملية تهجير قصرية لغايات عسكرية

أ. شمبازي محمد
جامعة فرحات عباس سطيف

**مدخل :**

ارتبطت ظاهرة المحتشدات عبر مراحل التاريخ المختلفة بالأزمات والحروب، وبالأخص تلك المعروفة بحروب الاستقلال، وإذا كان المدلول اللغوي المبسط للمحتشد يُعبر عن تجمع سكاني مراقب ومحصور ضمن مجال محدود فانه في سياقه التاريخي يتعدى المجالين الجغرافي والمعماري، فالأمر يتعلق بإستراتجية متعددة الجوانب (عسكرية، سياسية، اقتصادية، ثقافية) نفذتها قوى الاستعمار قديما وحديثا لتحقيق غايات محددة ومضبوطة، وقد ترتب عن هذه السياسة حركة اجتماعية داخلية وخارجية غاية في الأهمية.

وحتى تتبين بصورة جلية أسباب وخلفيات هذا الحراك الاجتماعي يكون من الأفيد التعرف –ولو بصورة مختصرة –

على مختلف جوانب الحياة داخل هذه المحتشدات والظروف المحيطة بها.

## المحتشدات عبر التاريخ :

مثلما أشرنا أعلاه، فالظاهرة ليست وليدة ثورات التحرر التي عرفها القرن 19 و 20، بل ترجع جذورها إلى أزمنة سابقة، حتى أن بعض الباحثين يعود بها إلى فترة التوسع الروماني لما أبدت سلطة هذه الدولة رغبة في حصر ومراقبة سكان الأقاليم التي أخضعتها وإيجاد اقتطاعات زراعية تُوزعها على موظفيها من مدنيين وعسكريين، وتظهر هذه الممارسة بشكل أوضح في إفريقيا الشمالية. [1]

و لأن المقام لا يسمح بالتوسع أكثر فسنقتصر في هذا المقال على ذكر بعض نماذج الحصر والتجميع التي تمت في أزمنة وأماكن مختلفة من الكرة الأرضية.

في أمريكا اللاتينية : مارس الاستعمار الاسباني سياسة التجميع في حق الأهالي من الهنود الحمر وذلك في مراكز عرفت بـ (reducciones) منذ عام 1573 والغرض منها هو التحكم في هؤلاء السكان واستغلالهم في العمل المنجمي، وقد مست العملية في منطقة (البيرو) وحدها 1500000 فرد، كما أدركت الإرساليات الدينية نجاعة العملية في تنصير عددا أكبر من السكان، فأنشأت بالتعاون مع السلطات المدنية والعسكرية مراكز تجميع عُرفت بـ (التجمعات اليسوعية) بالرغم من

1. Michel-Cornaton, Les camps de regroupement de la guerre d'Algérie, l'Harmattan, Paris, France, 1998, pp. 22-26.

أن الهدف المعلن من طرف رجال الدين هو حماية الأهالي من الإبادة و تعسف المعمرين الاسبان.[1]

**في الهند الصينية** : تجددت الحرب في هذه المنطقة بعد عودة فرنسا إليها عقب الحرب العالمية الثانية وسارع جينيرالاتها إلى تنفيذ إستراتجية عسكرية تبدأ بتطهير المناطق الواحدة بعد الأخرى من عناصر (الفيات منه) ثم تجميع عائلاتهم بمعدل 300 إلى 500 عائلة في كل مركز، مع تحميل هؤلاء مهمة إنشاء فرق للدفاع الذاتي،وفي المقابل ركن الثوار بأسرهم إلى المناطق الغابية في تجمعات وقرى لا تختلف عن السابقة[2] وكانت الولايات المتحدة الأمريكية في إطار سياسة ملأ الفراغ في المنطقة قد انتهجت نفس الإستراتيجية فأقدمت على إنشاء ما يعرف Hameaux stratégiques التي ضمت الملايين من الفيتناميين ووصل عددها آنذاك إلى 8000 قرية.[3]

**في الجزائر** : في هذا السياق تعتبر الجزائر نموذجا بارزا للظاهرة سواء في مرحلة التوسع الاستعماري أو خلال مرحلة تراجعه، وسيأتي تفصيل ذلك ضمن عناصر الموضوع اللاحقة.

**المحتشدات في الجزائر** : عرف الجزائريون الترحيل والتجميع القصري خلال الحقبة الاستعمارية مرتين :

**الأولى** : خلال بداية الفترة الاستعمارية عندما تحملت المكاتب العربية مهمة التجميع وفق تسميات مختلفة (Smala-Village De

1. Ibid, p. 27.
2. Michel-Cornaton, opcit, p. 37.
3. Ibid, p. 39.

(Fellah-Cantonnement) والهدف منها هو تفتيت القبائل والتحكم فيها وتسريع عملية التوسع والاستيطان، خاصة بعد صدور قانون (Senatus Consulte) وقانون (Warnier) و باقي القوانين التي سهلت تفتيت الأراضي وبيعها.[1]

**الثانية** : خلال نهاية فترة الاستعمار (الثورة) حيث تكفل بالمهمة ضباط الشؤون الأهلية والفرق الإدارية المختصة (S.A.S) التي استحدثها المقيم العام (Jacques Soustelle) بموجب مرسوم 1955/09/26 [2] وتلخصت إستراتيجية السلطة الفرنسية خلال هذه المرحلة في تفريغ المناطق التي تعرف تواجدا مكثفا للثورة من سكانها وتجميعهم في مناطق آمنة تقع في الغالب في مواقع مكشوفة (سفوح الجبال، الطرق الرئيسية، بالقرب من الثكنات) والهدف هو عزل الثورة عن محيطها الداخلي وحرمانها من مختلف أوجه الدعم اللوجستيكي.

وإذا كانت السلطة الفرنسية قد أقرت بهذه السياسة و أخذت تتكلم عنها منذ مطلع عام 1957 فإنها في الحقيقة دشنتها مطلع سنة 1955 بإقامة ثلاثة مراكز للتجميع في منطقة الأوراس (مشونش، تكوت، بوحمامة) [3]، ومرت هذه الإستراتيجية بثلاث مراحل رئيسة :

**المرحلة الأولى** : تمتد من 1955 إلى 1959 حيث كانت العملية خاضعة لظروف عسكرية آنية و غالبا ما يتم تجميع السكان دون أي تحضير

1. Ibid, pp. 43-53.
2. Michel-Cornaton, opcit, pp. 57-58.
3. Ibid, pp. 64-65.

مسبق، ويخضع السكان المرحلون للإشراف المباشر للقطاع العسكري للناحية ومكاتب (S.A.S) في حين الإدارة العامة تكون من اختصاص المديرية العامة للشؤون السياسية (D.G.A.P) التي عُوضت فيما بعد بمديرية الموارد البشرية والشؤون الإدارية (D.P.A.A) ووصل عدد المحتشدات في هذه المرحلة إلى 936 محتشد.[1]

**المرحلة الثانية :** تمتد من 1959 إلى 1961 حيث أصبحت عملية الترحيل تتم وفق سياسة شاملة ورسمية، تنتهجها السلطات العسكرية والمدنية على السواء وأصبح لا يحدٌّ من انتشارها سوى قلة التأطير البشري، ففي خلال سنة 1959 انتقل عدد المحتشدات إلى 1033 وتسارعت العملية بعد إدراجها ضمن برنامج 1000 قرية المنبثق عن مشروع قسنطينة المعلن عنه شهر أكتوبر 1958، وأنشئ لهذه المهمة هيئة تحمل اسم محافظة البناء والسكن الريفي (C.R.H.R) التي وُضعت تحت إشراف المندوب السامي (Paul Delouvrier).[2]

**المرحلة الثالثة :** تبدأ منذ ربيع 1961 حيث شرعت السلطات الفرنسية في التراجع عن سياسية المحتشدات بعد أن اتضحت معالم المسار الاستقلالي، وتبعا لذلك عُوضت المفتشية العامة للمحتشدات بالمحافظة العامة للعمليات المستعجلة (C.G.A.U)، وقد بلغ عدد المحتشدات في هذه السنة 2600 محتشد.[3]

1. Michel-Rocard, rapport sur les camps de regroupement et autres textes sur la guèrre d'Algérie, Fayard, 2003, p. 107.
2. Gregor-Mathias, les sections administratives spécialisées en Algérie (1955-1962), L'Harmattan, 1998, p. 88.
3. Michel-Cornaton, opcit, pp. 120-127.

إن هذه المحتشدات كانت تتوزع في كل القطر الجزائري وفق ثلاث أنماط.

**نمط التوطين** (Recasement) : الذي خص المرحلين الذين تم دفعهم إلى الاحتماء بتجمع سكاني قائم، فاستقروا في محيطه أو على أطرافه.

**نمط الحصر** (Resserement) : وخص سكان المناطق الريفية المتباعدة والذين تم حصرهم في مساحة أضيق من تلك التي كانوا ينتشرون عليها.

**نمط القرى** : (Camps De Regroupement) وهو الأكثر وضوحا وتطبيقا من جانب السلطة الفرنسية ويخص المرحلين الذين تم توطينهم في مراكز لم تكن موجودة أصلا وتبعد عن مواطنهم الأولى بمسافات تطول أو تقصر حسب الظروف الأمنية والطبيعية.[1]

أما بخصوص عدد السكان الذين خضعوا لعملية الترحيل والتجميع فقد قُدر عام 1962 بحوالي 2300000 نسمة أي ربع مجموع السكان الجزائريين، وإذا أخذنا في الحسبان النازحين إلى أطراف المدن الكبرى والأحياء القصديرية فان العدد يُقدر بحوالي 3500000 نسمة.[2]

1. Ibid, pp. 63-65.
2. Michel-Rocard, opcit, pp. 112-113.

## الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل المحتشد :

قبل التطرق للظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هذه المراكز يكون من المستحسن إعطاء صورة موجزة عن الطبيعة العمرانية للمحتشد لما لهذا الجانب من علاقة مباشرة بمختلف الجوانب الأخرى (الاقتصادية، الاجتماعية، العسكرية) إن الطابع العمراني للمحتشدات في عمومها مستوحى من مواصفات البناء العسكري، فهي أقرب إلى السجون المفتوحة منها إلى القرى السكنية، فالسياج الخارجي المزود بصوامع الحراسة ونقاط المراقبة يأتي في مقدمة المكونات العمرانية للمحتشد، والمساكن ومختلف البيانات تتوزع في شكل متراصف وفق خطوط مستقيمة حتى تُسهل عملية مراقبة السكان وإحصائهم. كما يضم المحتشد – إضافة إلى البناءات ذات الطابع التعليمي أو الاقتصادي – مقار عسكرية وأخرى لمكاتب (S.A.S). وقد وصف أحد ضباط مكاتب (S.A.S) محتشد (سيدي سالم) قائلا : « أعشاش من البناء الصلب بأربعة جدران من الطوب وسقف من الصفيح وفناء صغير... هذا التجمع ليس له أي خصوصية : مستطيل كبير مقسم إلى وحدات أصغر، طرقه تتقاطع بزوايا قائمة »[1]. وقال عنها آخر : « لقد كانت بمواصفات عسكرية، أنجزت كاستجابة لظروف أمنية، إنها تفتقد للسند الروحي.... ».[2]

1. Gregor-Mathias, opcit, p. 93.
2. Gregor-Mathias, opcit, pp. 89-93.

أما من حيث التركيبة الاجتماعية للقاطنين في المحتشدات فقد تميزت بعد التجانس، سواء من ناحية فئات الأعمار أو من ناحية الجنس (ذكور، إناث)، فمعظم الدراسات التي تحصلنا عليها تؤكد بأن نسبة الرجال لا تتعدى في كل الأحوال 40 %، و أن الأطفال والعجزة يشكلون الأغلبية، لقد ذكر (Michel Rocard) رئيس حكومة فرنسية سابق ومؤلف كتاب (rapport sur les camps de regroupement) بأن أحد المحتشدات يضم 1200 فرد منهم 900 طفل، أي بنسبة تفوق 70 %، وفي محتشد آخر يضم 2774 فردا منهم 1860 طفلا [1]، وفي محتشد (بازر سكرة) الذي كان موضوع دراستنا في الماجستير، فالنسبة تفوق 60 %، وقد كان لهذه التركيبة البشرية تأثيرا واضحا على الجانب الاقتصادي لسكان المحتشدات. [2]

إن الوضع الاقتصادي المزري هو انعكاس مباشر لعملية الترحيل والتجميع السريعة، غير المدروسة بل والارتجالية في الكثير من الأحيان، والعامل الاقتصادي لم يكن حجر الزاوية في اختيار المواقع بقدر ماكانت الضرورة الأمنية هي الأساس، وتبعا لذلك تم إقامة أكثر من 80 % من المحتشدات في مواقع تبعد عن المواطن الأصلية بمسافة تتراوح بين 5 و 30 كلم، مما تسبب في انقطاع هؤلاء السكان عن مصادر رزقهم الأولى بصورة نهائية (الرعي والفلاحة) وأصبح مصيرهم مرتبطا كليا بالقيادة العسكرية المحلية ومكاتب (S.A.S) التي استحدثت خدمة عرفت بـ (الدعم المباشر) (l'assistance directe)

1. Michel Rocard, opcit, p. 133.

2. رسالتنا تحت عنوان، المحتشدات بولاية سطيف (1954-1962) جامعة قسنطينة 2008، ص. 54.

التي تتخلص في توزيع أقساط زهيدة من الشعير أو الفرينة لا تزيد كمياتها عن 11 كلغ للفرد البالغ في الشهر، ويحرم منها الأطفال حسب ما أورده (Michel-Cornaton) في كتابه (les camps de regroupement de la guerre d'Algérie). [1]

في محتشدنا النموذج (بازر سكرة) [2] وضع أحد الشعراء الشعبيين المنتمين إلى المحتشد هذا الدعم تحت عنوان (الصدقة) إذ يقول :

جات الصدقة فرينة مرة شعير مسوس لا يصلح حتى علف للدواب

المزوار اليوم يهدر بالنقرة ويقول كيُّل بالغوطي وفرق على لرقاب [3]

وبمرور الوقت اقتنعت السلطات المشرفة على المحتشدات بضرورة الانتقال إلى طريقة تتجاوز الدعم المباشر وتسمح بإطلاق ورشات في قطاعات مختلفة (بناء، أشغال عمومية، أشغال غابية، استصلاح أراضـي) كحل جزئي مؤقت لامتصاص البطالة، وجعل رواد المحتشدات يعتمدون على أنفسهم أكثر فأكثر، خاصة بعد إطلاق (Charles-de-Gaulle) لمشروع قسنطينة في أكتوبر 1958 والذي تضمن مشاريع للسكن والأشغال العمومية وتوزيع الأراضي. وأسندت مهمة تفعيلها للمندوب السامي (paul-Delouvrier) [4]، ومع ذلك فالوضع لم يرق إلى المستوى الذي يخفف وطأة الظروف الصعبة أو يؤسس لتنمية مستدامة تُبعد سكان المحتشدات عن دائرة الفقر.

1. Michel-Cornaton, opcit, p. 73.

2. محتشد يقع جنوب مدينة العلمة ولاية سطيف أقيم سنة 1958.

3. رسالتنا، ص. 146.

4. Michel-Rocard, opcit, p. 134.

## الحياة السياسية والعسكرية داخل المحتشد :

الحياة السياسية والعسكرية داخل المحتشد يديرها طرفان : من جهة هناك السلطة الفرنسية التي تُدير العملية بواسطة مؤسساتها المتواجدة بالمكان والمنتمية بشكل أو بآخر إلى مكتب (S.A.S) وبدرجة أقل إلى المندوبية البلدية، ومن جهة أخرى هناك سلطة الثورة التي تتواجد بنفس المكان وبطريقة غير معلنة، وتُدير العملية السياسية بواسطة الخلايا المندسة وعبر علاقاتها المتنوعة في محيط المحتشد (فلاحون، تجار).[1]

وجدت السلطة الفرنسية في المحتشدات الوكر المفضل للدعاية والاستعلام، وفي مكاتب (S.A.S) الجهاز الأكثر أهلية للقيام بهذه المهمة، بحكم قربها من الأهالي وبحكم المهام الإدارية الموكلة لها. هذه المهمة تبدأ بتحديد هوية رواد المحتشد عن طريق استصدار وثائق عديدة كبطاقات إحصاء ورخص السفر ورخص التنقل إلى خارج المحتشد ورخص الإيواء ورخص العبور للأشخاص ورخص العبور للمؤن وبطاقات التعريف وغيرها من الوثائق، وتعتبر عملية التوثيق هذه مقدمة للعمل الاستخباراتي والبسيكولوجي المسلط على قاطني المحتشد، وتستعمل مكاتب (S.A.S) لهذه المهمة الحيوية لواحقها كـ (المخازنية) وأسرهم، الحركة، الملحقين الإداريين، المعلمين، ويستعمل هؤلاء حتى تلامذتهم، العاملين في قطاعات أخرى كالصحة والنشاط المهني

1. Gregor-Mathias, opcit, p. 115.

والثقافي، بل أن هذه المكاتب أصبحت تُخصص مبالغ مالية سرية تُصرف للعملية الاستخباراتية والقائمين عليها.[1]

وفي الكثير من الأحيان يتجاوز الطاقم العسكري وشبه العسكري عملية المراقبة وجمع المعلومات والعمل البسيكولوجي إلى الفعل العسكري البحت، وذلك تبعا للظروف الأمنية السائدة بالمنطقة. فكلما كان الوضع سيئا كلما أُقحمت هذه الفرق في مهمات عسكرية، كما تطال هذه العمليات المحيط الخارجي للمحتشد في شكل تمشيط أو كمائن.[2]

الطرف الآخر في المعادلة هو تنظيمات الثورة، هذه الأخيرة أدركت مبكرا الخطورة التي تمثلها سياسة المحتشدات، فتواجدت في نفس المكان لمواجهة الدعاية والعمل البسيكولوجي، عن طريق زرع خلايا سرية لتنفيذ دعاية مضادة، وجمع المعلومات الخاصة بتحركات الجيش الفرنسي، وتسريب ما تيسر من المواد الغذائية والألبسة والاشتراكات. وتتضمن الدعاية المضادة أفكارا تُبقي على الروح المعنوية المرتفعة للسكان، وعدم تصديق ما يصدر من مكتب (S.A.S) وأتباعه، والطلب من السكان الابتعاد عن الأنشطة التي تقدمها الهيئات الملحقة بهذه المكاتب وبالأخص الدواء. ويسرد (Chales Robert Ageron) بعض مضامين الدعاية المضادة كوصف سياسة المحتشدات بأنها عملية الغرض منها إبادة الجزائريين عن طريق وضع الدواء في المواد الغذائية التي توزع عليهم والتي تؤدي إلى

1. Ibid, p. 113.

2. رسالتنا، ص. 79.

العقم، أو التهديدات الموجهة لفرق (المخازنية) و (الحركة) الداعية إلى استقالتهم والالتحاق بالثورة بمعية أسلحتهم وان لم يفعلوا ذلك سيكون جزاؤهم الإعدام. [1]

وقد كان تأثير الدعاية المضادة على السكان وعلى المتعاونين مع السلطة الفرنسية واضحا، فقد تأثرت سلبا الخدمات التي كانت تقدمها المصالح الملحقة بمكاتب (S.A.S)، اذ يذكر طبيب ينشط مع مكتب (S.A.S) بأن عدد الزوار الى مصحته تراجع من حوالي 500 زيارة شهريا الى 100 زيارة فقط. زيادة على امتناع الكثير من الأهالي عن المشاركة في الانتخابات واستقالة بعض المنتخبين. [2]

## الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عن سياسة التهجير والتجميع :

بما أن الريف الجزائري كان المستهدف الرئيس من عملية الترحيل والتجميع القصري فان الأزمة التي مست عالم الزراعة وتربية الماشية كانت النتيجة المباشرة لهذه الإستراتيجية. فقد أدّت سياسة تهجيرهم إلى مناطق بعيدة عن مواطنهم الأصلية، وحرمانهم جزئيا أو كليا من استغلال أراضيهم إلى فقدانهم لمصادر رزقهم. [3]

وإذا كانت فلاحة الأرض قد تضررت نتيجة هذا الوضع فان قطاع الماشية كان المتضرر الأكبر، بفعل انحصار المساحات الرعوية

1. Charles Robert Ageron, histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, France, pp. 210-225.
2. Gregor-Mathias, opcit, pp. 128-131.
3. Pierre-Vidal-Naquet, les crimes de l'armée française en Algérie, la Découverte, Paris, 2001, p. 147.

أو انعدامها كليا في محيط المحتشدات، فالدراسة التي أنجزتها المؤسسة العسكرية الفرنسية تفيد بتراجع القطيع إلى النصف، في حين تُقدر الإحصائيات الصادرة عن الإدارة لذات الدولة بأن التراجع وصل إلى الثلثين، وتعود هذه الخسائر إلى تراجع المساحات الرعوية والى الطابع العمراني لمراكز التجميع والمساكن الجديدة التي لا تتلاءم مع هذا النشاط ولا تسمح حتى بتربية الدواجن.[1]

إن عملية التهجير القصري لسكان الريف قد أثرت كثيرا على الجانب الاقتصادي، لقد أدت إلى اقتلاع هؤلاء من أراضيهم وأنماط اقتصادهم دون أن تُوفر لهم ظروفا ملائمة للعيش أو نشاطا اقتصاديا مستقرا، بل الذي حصل أن هذه السياسة أدّت إلى تكسير الدورة الاقتصادية لعالم الريف وضيعت عن سكانه المرحلين خبرتهم ومعرفتهم العميقة بالوسط الذي يعيشون فيه، وهي معارف اكتسبوها عبر سنين طويلة من الزمن، كما فرضت على الأسرة الريفية نمطا اقتصاديا جديدا أساسه العمل المأجور وهو ما لم يكونوا متعودين عليه.[2]

ويمكن اختصار الظروف الصعبة التي عاشها هؤلاء في ما ورد على لسان الجنرال (Parlange) المسؤول الأول عن المحتشدات حيث قال « ... على المستوى الاقتصادي كان لعمليات التهجير آثارا سيئة، تُرجمت على أرض الواقع بفقر مدقع... انه من السهل التصريح بان السكان كانوا يعيشون قبل الترحيل من لا شئ، ولكن على الأقل كان اقتصاد

1. Michel-Rocard, opcit, p. 131.

2. Michel-Rocard, opcit, p. 131.

الأسرة المتذبذب والهش يُؤمن الحدود الدنيا من الحاجات... بعض سكان الونشريس أسرُّوا إلي قائلين : قبل كنا نأكل ثمار البلوط،لكن كنا على الأقل نأكل... لقد قمنا بعملية تجميع للفقر، وحولناه إلى ظاهرة مزمنة مرعبة... مصادر العيش اندثرت، قطعان الماشية اختفت، القطاع الغابي تضرر... وسائل الإنتاج أصبحت تحت طائلة الإهمال والضياع... أراضي بعيدة، حيوانات بيعت، انه الخراب التام،المرحلون الذين أصبحوا يعيشون هذا الوضع المزري يُحملوننا المسؤولية وينتظرون منا أن نُوفر لهم ظروف العيش المقبولة...»[1]

إن الأوضاع الاقتصادية المزرية سابقة الذكر، والضغط البسيكولوجي الممارس على سكان المحتشدات كانت لها نتائج بالغة الخطورة، فانتشر الفقر والأمراض والأوبئة، وارتفعت نسبة الوفيات خاصة لدى شريحة الأطفال، حيث القاعدة العامة تُؤكد وفاة طفل كل يومين في كل محتشد يقل عدد سكانه عن 1000 فرد، وترتفع أكثر من ذلك كلما زاد عدد سكان المحتشد واذا اعتمدنا سنة 1959 كمثال فان 500 طفل من أبناء المحتشدات يتوفون كل يوم، على اعتبار أن عدد سكان هذه المراكز آنذاك في حدود 1000000 نسمة، أكثر من نصفهم أطفال. في المحتشد الذي كان موضع دراستنا هلك 270 طفل في ظرف 3 أشهر، منهم 186 لشهر أوت وحده أي بمعدل 7 أطفال يوميا. في أحد التقارير يصف صاحبه المأساة ويُبين بأن الحالة الفيزيائية لسكان المحتشدات متدهورة إلى درجة عدم الاستجابة للعلاج، وأن الأدوية لا يكون لها أي مفعول.[2]

1. Michel-Cornaton, opcit, p. 93.

2. Gregor-Mathias, opcit, p. 71.

إن التأثير لم يقتصر على الجانب المعيشي والصحي بل تعداه إلى جوانب سوسيولوجية، فالأسرة الريفية المهجرة وجدت نفسها في وسط مختلف تماما عن وسطها التقليدي، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وبالتالي فان انعكاسات هذا الوسط على طبيعتها و على علاقاتها هو أعمق من مجرد كونه تحركا في المجال الجغرافي، فالتغيير الذي تعرضت له كان فجائيا ولم يخضع لمبدأ التغيير التدريجي الذي قد تتعرض له أية أسرة ريفية كانت أم حضارية. [1]

إن النمط الاقتصادي القائم على العمل المأجور والمسكن الانفرادي فرضا على سكان الريف المهجرين نوعا جديدا من الروابط الأسرية، تميل أكثر إلى الفردية، عكس الحياة الريفية التي تجعل من أفراد الأسرة وحدة متماسكة مرتبطة بقطعة أرض معينة، وبمجال اجتماعي خاص، وكان من نتيجة ذلك بداية تراجع دور الأسرة الممتدة لصالح الأسرة الزوجية. [2]

إن إستراتيجية الترحيل القصري وإهمال السلطة الفرنسية لعنصر الملائمة الاقتصادية جعل الهجرة هجرتين :

الأولى : بعد عملية الترحيل القصري من المناطق الريفية إلى أماكن التوطين الجديدة التي مست كما أشرنا سابقا حوالي 2300000 نسمة. والجدول الآتي يبين لنا توزيع نسبة المهجرين حسب الدوائر وكان عددها في الجزائر آنذاك 76 دائرة : [3]

1. محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، د.و.ج، الجزائر، 1990، ص ص، 89-90.
2. محمد السويدي، المرجع السابق، ص، 90.
3. Michel-Cornaton, opcit, p. 124.

| نسبة السكان المرحلين إلى مجموع سكان الدائرة | 9 % | 10 % | 20 % | 30 % | 40 % | 50 % | 60 % | 70 % | 80 % | 90 % | 100 % | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| عدد الدوائر المعنية بالعملية | 3 | 13 | 10 | 18 | 9 | 4 | 2 | 5 | 3 | 4 | 5 | 76 |

الثانية : نحو المدن والبلدات الداخلية وحتى إلى الخارج هروبا من عسر المعيشة والإجراءات القمعية في محيط المناطق المحرمة والمحتشدات.

في محتشدنا النموذج تمت الهجرة الثانية إلى نفس المناطق التي هاجر إليها من تخلفوا عن الحملة الأولى، وهي الأماكن المجاورة للمنطقة المحرمة وبعض البلدات القريبة منها وبعض المدن الكبرى، وهناك من هاجر إلى فرنسا، ونسرد هنا نموذجا للأسرة (س) التي تختصر لنا العملية بكل مراحلها والانعكاسات التي سبق ذكرها في المجال الاجتماعي (ترحيل قصري، تفكك الأسرة، الهجرة الداخلية، الهجرة الخارجية).[1]

عائلة (س) تتكون من ثلاث إخوة أحدهم متوفى، كان أفرادها وقت ترحيلها يوم الثلاثاء 17 جوان 1958 بعدد 22 نسمة (6 رجال، 6 نسوة، 10 أطفال) يتراوح سن الأطفال بين شهرين و15 سنة، أحد الإخوة الثلاثة نزح بطريقة قانونية من المحتشد واستقر ببلدة رأس الواد ولاية برج بوعريريج بعد أن تحصل على شهادة إيواء من صهره القاطن بالبلدة نفسها، الأخ الثاني بقي في المحتشد مع أسرته حتى الاستقلال وعاد بعد ذلك الى موطنه الأصلي (أولاد تبان) أما أبناء الأخ المتوفى فان أحدهم التحق بصفوف الثورة في حينها،والأكبر سنا بقي في المحتشد 8 أشهر وتمكن من الفرار متخفيا مع أسرته وأستقر

1. رسالتنا، ص، 101.

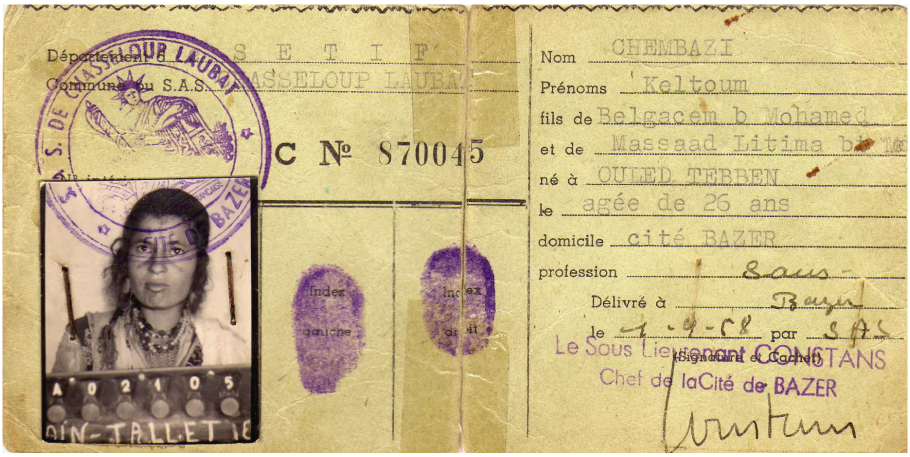
به المقام في بلدة عين ولمان ولاية سطيف، أما الأخ الأصغر فقد استغل ظروف وجوده خارج المحتشد فهاجر إلى فرنسا للعمل وبقي هناك حتى الوقت الحاضر [1].

**الخاتمة :**

إذا كانت سياسة التهجير والتجميع أثناء المد الاستعماري قد حققت معظم أهدافها لارتباط ذلك بعامل معادلة القوة الذي كان لصالح القوى الاستعمارية، فان هذه القوى نفسها لم تحقق أهدافها أثناء المد التحرري باستعمال نفس الإستراتيجية رغم استمرار ميزان القوة العسكرية لصالحها، لكن الظروف والمستجدات التي أعقبت الحربين العالميتين لم تكن تسمح بذلك.

1. المكان نفسه.

## نموذج لبطاقات الإحصاء داخل المحتشد : [1]


Département de S E T I F
Commune ou S.A.S. CHASSELOUP LAUBAT
C № 870045
Nom CHEMBAZI
Prénoms Keltoum
fils de Belgacem b Mohamed
et de Massaad Litima bt M
né à OULED TEBBEN
le agée de 26 ans
domicile cité BAZER
profession Sans
Délivré à Bazer
le 1-9-58 par SAS
(Signature et Cachet)
Le Sous Lieutenant CONSTANS
Chef de laCité de BAZER
index gauche
index droit
A 0 2 1 0 5
AIN-TALLET IE


Département de S E T I F
Commune ou S.A.S. CHASSELOUP LAUBAT
C № 87007
Nom CHEMBAZI
Prénoms Abdelaziz
fils de Salah b Abdelaziz
et de Leridi Lakout bt Lamri
né à OULED TEBBEN
le agé de 27 ans
domicile cité BAZER
profession journalier
Délivré à Bazer
le 1-9-58 par SAS
(Signature et Cachet)
Le Sous Lieutenant CONSTANS
Chef de laCité de BAZER
index gauche
A 0 2 1 0 6
AIN-TALLET IE

1. رسالتنا، ص 145.